

رَجَالُ حَوْلِ النَّبِيِّ

خالد محمد خالد

الجزء الخامس من

رجال حول الرسول

الطبعة الخامسة



دار المعارف

بطاقة فهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

خالد ، خالد محمد .
رجال حول الرسول / خالد محمد خالد .
ط ٥ - القاهرة : دار المعارف ، (٢٠١٠) .
مج ٥ : ١٩٠٥ سم .
تدعمك : ٨ - ٧٣٨٧ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١ - الصحابة والتابعون .
أ - العنوان .

ديوى ٢٣٩.٩

رقم الإيداع ٢٠٠٩ / ٢٤٦٥٤ ١ / ٢٠٠٩ / ٧٨

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج.م.ع .

هاتف: ٢٥٧٧٧.٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

في هذا الكتاب

صفحة

أسامة بن زيد: الحُبُّ بن الحُبِّ	٩
عبد الرحمن بن أبي بكر: بطل حتى النهاية.....	٢١
عبد الله بن عمرو بن العاص: القانت، الأواب	٢٧
أبو سفيان بن الحارث: من الظلمات إلى النور	٤٣
عمران بن حُصَيْن: شبيه الملائكة!.....	٥١
سَلَمَة بن الأكوع: بطل المُشاة.....	٥٧
عبد الله بن الزبير: أيُّ رجل.. وأيُّ شهيد؟!.....	٦٣
عبد الله بن العباس: حَبْرُ هذه الأمة.....	٧٧
عباد بن بشر: معه من الله نور!.....	٩١
سُهَيْلُ بن عمرو: من الطلقاء، إلى الشهداء!.....	١٠١
أبو موسى الأشعري: الإخلاص.. وليكن ما يكون.....	١١٣
الطُّفَيْلُ بن عمرو الدوسي: الفطرة الراشدة.....	١٣٣
عمرو بن العاص: محرر مصر من الرومان	١٤٣
سالم مولى أبي حذيفة: بَلْ نَعَمْ حَامِلُ القرآن	١٥٩

مراجع الكتاب

- ١ - الإصابة ، في تمييز الصحابة للإمام ابن حجر العسقلاني
- ٢ - الاستيعاب ، في أسماء الأصحاب للحافظ ابن عبد البر
- ٣ - السيرة النبوية لابن هشام
- ٤ - حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم الأصبهاني
- ٥ - الطبقات الكبرى للحافظ محمد بن سعد
- ٦ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير

أُسامة بن زيد الحبُّ بنُ الحبِّ

جلس أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه يقسم أموال بيت المال على المسلمين..

وجاء دور عبد الله بن عمر، فأعطاه «عمر» نصيبه.

ثم جاء دور «أُسامة بن زيد» ، فأعطاه «عمر» ضعف ما أعطى ولده عبدَ الله..

وإذ كان «عمر» يعطى الناس وفق فضلهم، وبلائهم فى الإسلام، فقد خشى عبد الله بن عمر أن يكون مكانه فى الإسلام آخرًا، وهو الذى يرجو بطاعته، وبجهاده، وبزهده، وبورعه، أن يكون عند الله من السابقين..

هنالك سأل أباه قائلاً: «لقد فضّلت على أسامة، وقد شهدت مع رسول الله ما لم يشهد»...؟

فأجابه عمر:

«إن أسامة كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك...»

«وأبوه كان أحبَّ إلى رسول الله من أبيك»...!

فمن هذا الذى بلغ هو وأبوه من قلب الرسول وحُبّه ما لم يبلغه ابن عمر، وما لم يبلغه عمر ذاته...؟؟

إنه «أسامة بن زيد»..

كان لقبه بين الصحابة: «الحبّ بن الحبّ»..

أبوه «زيد بن حارثة»^(١) خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى آثر الرسول على أبيه وأمه وأهله، والذى وقف به النبى على جموع أصحابه يقول:

«أشهدكم أن زيدًا هذا ابنى، يرثنى وأرثه»...

(١) انظر ترجمته رضى الله عنه فيما مضى من الكتاب.

وظل اسمه بين المسلمين «زيد بن محمد» حتى أبطل القرآن
الكريم عادة التبنى..

أسامة هذا، ابنه...

وأمه، هي أم أيمن - مولاة رسول الله وحاضنته.

لم يكن شكله الخارجى يؤهله لشيء... أى شيء...

فهو كما يصفه الرواة والمؤرخون: «أسود، أفطس»...

أجل... بهاتين الكلمتين، لا أكثر، يلخص التاريخ حديثه عن

شكل أسامة..!!

ولكن، متى كان الإسلام يعبأ بالأشكال الظاهرة للناس..؟

متى ورسوله هو الذى يقول:

«أَلَا رُبَّ أَشْعَثَ، أَغْبَرَ ذَى طَمْرَيْنٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ

عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ»

فلندع الشكل الخارجى لأسامة إذن...

لِنَدْعَ بشرته السوداء، وأنفه الأفطس، فما لهذا كله فى ميزان

الإسلام مكان...

ولننظر ماذا كان فى ولاته؟ ماذا كان فى افتدائه..؟

ماذا كان في عفته..؟ في استقامته..؟ ماذا كان في روعه
— وإخباته..؟ في عظمة نفسه، وامتلأ حياته...؟!

لقد بلغ من ذلك كله المدى الذى هَيَّأ لهذا الفيض من حب
الرسول عليه الصلاة والسلام وتقديره:

«إن أسامةَ بن زيدَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنِّي لأَرْجُو
أَنْ يَكُونَ مِنْ صَالِحِيكُمْ، فَاسْتَوْصُوا بِهِ خَيْرًا».

كان «أسامة» رضى الله عنه مالكا لكل الصفات العظيمة التي
تجعله قريبا من قلب الرسول.. وكبيرا في عينيه...

فهو ابن مُسلمين كريمين من أوائل المسلمين سَبَقًا إلى الإسلام،
ومن أكثرهم ولاء للرسول وقُرْبًا منه.

وهو من أبناء الإسلام الحنفاء الذين وُلِدُوا فيه، وتَلَقَّوْا
رضعاتهم الأولى من فِطْرته النقية، دون أن يدركهم من غبار
الجاهلية المظلمة شىء...

وهو - رضى الله عنه - على حداثة سنه، مؤمن صُلْب، ومسلم
قوى، يحمل كل تبعات إيمانه ودينه، في ولاء مكين، وعزيمة قاهرة...

وهو مُفرط في ذكائه، مفرط في تواضعه، ليس لتفانيه في سبيل الله ورسوله حدود...

ثم هو بعد هذا، يمثل في الدين الجديد، ضحايا الألوان الذين جاء الإسلام ليضع عنهم أوزار التفرقة وأوضارها...

فهذا «الأسود الأفطس» يأخذ في قلب النبي، وفي صفوف المسلمين مكاناً علياً، لأن الدين الذي ارتضاه الله لعباده قد صحح معايير الآدمية والأفضلية بين الناس، فقال:

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾...

وهكذا رأينا الرسول عليه الصلاة والسلام يدخل مكة يوم الفتح العظيم ورديفه هذا الأسود الأفطس «أسامة بن زيد». ثم رأيناه يدخل الكعبة في أكثر ساعات الإسلام روعة، وفوزاً، وعن يمينه ويساره بلال، وأسامة... رجلان تكسوهما البشرة السوداء الداكنة، ولكن كلمة الله التي يحملانها في قلوبهما الكبيرين الطاهرين أسبغت عليهما كل الشرف، وكل الرفعة..

* * *

وفي سنٍّ مبكرة، لم تجاوز العشرين، أمر الرسول أسامة بن زيد على جيش، بين أفراداه وجنوده أبو بكر وعمر!!

وسرت هَمْهَمَةٌ بين نفر من المسلمين تعاضمهم الأمر،
واستكثروا على الفتى الشاب - أسامة بن زيد - إمارة جيش فيه
شيوخ الأنصار وكبار المهاجرين...

وبلغ همسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصعد المنبر،
وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال؛

«إن بعض الناس يطعنون في إمارة أسامة بن زيد..

«ولقد طعنوا في إمارة أبيه من قبل...»

«وإن كان أبوه لخليقاً للإمارة...»

«وإن أسامة لخليقٌ لها...»

«وإنه لمن أحبَّ الناس إلىَّ بعد أبيه...»

«وإني لأرجو أن يكون من صالحكم...»

«فاستَوْصُوا به خيراً»...

وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يتحرك الجيش
إلى غايته ولكنه كان قد ترك وصيته الحكيمة لأصحابه:

«أَنْفِذُوا بَعَثَ أَسَامَةَ...»

«أَنْفِذُوا بَعَثَ أَسَامَةَ...»

وهكذا قدّس الخليفة أبو بكر هذه الوصاة، وعلى الرغم من الظروف الجديدة التي خلفتها وفاة الرسول، فإن الصديق أصرَّ على إنجاز وصيته وأمره، فتحرك جيش أسامة إلى غايته، بعد أن استأذنه الخليفة في أن يدّع له «عمر» ليبقى إلى جواره بالمدينة.

وبينما كان إمبراطور الروم «هرقل» يتلقى خبر وفاة الرسول، تلقى في نفس الوقت خبر الجيش الذي يغير على تخوم الشام بقيادة أسامة بن زيد، فحيّره أن يكون المسلمون من القوة بحيث لا يؤثر موت رسولهم في خططهم ومقدرتهم.

وهكذا انكمش الروم، ولم يعودوا يتخذون من حدود الشام نُقْطَةً وتُوبَ على مهد الإسلام في الجزيرة العربية.

وعاد الجيش بلا ضحايا... وقال عنه المسلمون يومئذ:

«ما رأينا جيشاً أسلم من جيش أسامة»!!..



وذاَتَ يومَ تلقى أسامة من رسول الله درس حياته.. درساً بليغاً عاشه أسامة، وعاشته حياته كلها منذ غادرهم الرسول إلى الرفيق الأعلى إلى أن لقي أسامة ربه في أواخر خلافة معاوية. قبل وفاة الرسول بعامين بعثه عليه السلام أميراً على سِريّة

خرجت للقاء بعض المشركين الذين يناوئون الإسلام والمسلمين.
وكانت تلك أول إمارة يتولاها «أسامة»..

ولقد أحرز في مهمته النجاح والفوز، وسبقته أنباء فوزه إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرح بها وسُرَّ.

ولنستمع لأسامة يروى لنا بقية النبأ:

«... فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أتاه
البشير بالفتح، فإذا هو متَهَلِّلٌ وجهه.. فأذناني منه ثم
قال:

حَدَّثَنِي...

«فجعلت أحدثه.. وذكرتُ له أنه لما انهزم القوم أدركت
رجلا وأهويتُ إليه بالرمح، فقال: لا إله إلا الله
فطعنته فقتلته.

«فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:

«وَيُحَاكَ يَا أُسَامَةَ..!

«فكيف لك بلا إله إلا الله..؟

«وَيُحَاكَ يَا أُسَامَةَ..؟

فكيف لك بلا إله إلا الله..؟

«فلم يزل يُردها علىّ حتى لوددتُ أنى انسلختُ من كل عمل عملتهُ. واستقبلتُ الإسلام يومئذ من جديد.»
«فلا والله، لا أقاتل أحداً قال لا إله إلا الله بعد ما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم.»

هذا هو الدرس العظيم الذى وجّه حياة أسامة الحبيب بن الحبيب منذ سمعه من رسول الله إلى أن رحل عن الدنيا راضياً مرَضِياً.

وإنه لدرسٌ بليغ.

درس يكشف عن إنسانية الرسول، وعدله، وسُمُو مبادئه، وعظمة دينه وخلقه..

فهذا الرجل الذى أسيف النبی لمقتله، وأنكر على «أسامة» قتله، كان مشركاً ومُحارباً..

وهو حين قال: لا إله إلا الله.. قالها والسيف على يمينه، تتعلق به مُزْعُ اللحم التى نهشها من أجساد المسلمين.. قالها لينجو بها

من ضربة قاتلة، أو ليهيئ لنفسه فرصة يغير فيها اتجاهه ثم يعاود القتال من جديد..

ومع هذا؛ فلأنه قالها، وتحرك بها لسانه، يصير دمه حراماً -
وحياته آمنة، في نفس اللحظة ، ولنفس السبب..!!

مهما تكن طويته، وسريته ونواياه..

ووعى «أسامة» الدرس إلى مُنتهاه..

فإذا كان هذا الرجل، في هذا الموقف، ينهى الرسول عن قتله
لمجرد أنه قال: لا إله إلا الله.. فكيف بالذين هم مؤمنون حقاً،
ومسلمون حقاً..؟

وهكذا رأيناه عندما نشبت الفتنة الكبرى بين الإمام على
وأنصاره من جانب ، ومعاوية وأنصاره من جانب آخر، يلتزم
حياداً مطلقاً.

كان يحب «علياً» أكثر الحب، وكان يبصر الحق في جانبه..
ولكن كيف يقتل بسيفه مسلماً يؤمن بالله وبرسوله، وهو الذى لامه
الرسول لقتله مشركاً محارباً قال في لحظة انكساره وهروبه:
لا إله إلا الله..؟؟؟!

هنالك أرسل إلى الإمام «عليّ» رسالة قال فيها:

«إنك لو كُنْتَ في شِدْقِ الأسد،
لأُحِبِّتُ أن أدخلَ معكَ فيه.
«ولكن هذا أمرٌ لم أره»..!!

ولزم داره طوال هذا النزاع وتلك الحرب..

وحين جاءه بعض أصحابه يناقشونه في موقفه قال لهم:
«لا أقاتل أحداً يقول لا إله إلا الله أبداً».

قال أحدهم له: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً
وَيَكُونَ الدِّينَ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾...؟؟

فأجابهم أسامة قائلاً:

«أولئك هم المشركون، ولقد قاتلناهم حتى لم تكن فتنة
وكان الدين كله لله»..

وفي العام الرابع والخمسين من الهجرة.. اشتاق «أسامة» للقاء
الله، وتعلمت روحه بين جوانحه، تريد أن ترجع إلى وطنها الأول..
وتفتحت أبواب الجنان، لتستقبل واحداً من الأبرار المتقين.

عبد الرحمن بن أبي بكر بطلٌ حتى النهاية

هو صورة مُبينة للخلق العربي بكل أعماقه، وأبعاده..
فبينما كان أبوه أَوَّلَ المؤمنين.. والصَّدِّيق الذي آمن بالله
وبرسوله إيماناً ليس من طرازه سواء.. وثاني اثنين إذ هما في
الغار.. كان هو صامداً كالصخر مع دين قومه، وأصنام قريش..!!

وفي غزوة بدر، خرج مقاتلاً مع جيش المشركين..
وفي غزوة أحد كان كذلك على رأس الرِّمَّة الذين جندتهم
قريش لمعركتها مع المسلمين..

وقبل أن يلتحم الجيشان، بدأت كالعادة جولة المبارزة..
ووقف «عبد الرحمن» يدعو إليه من المسلمين مَنْ يُبارز..

ونَهَضَ أبوه... «أبو بكر الصديق» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مندفعاً نحوه لِيُبَارِزَهُ.. لكن الرسول أَمْسَكَ بِهِ، وحال بينه وبين مُبَارَزة ولده.

* * *

إنَّ العربيَّ الأصيل لا يميزه شيءٌ مثلاً يميزه ولاؤه المطلق لاقتناعه..

إذا اقتنع بدين، أو بفكرة استعبده اقتناعه، ولم يعد للفِكَاك منه سبيل، اللهمَّ إلا إذا أزاحه عن مكانه اقتناع جديد يملأ عقله ونفسه بلا زيف، وبلا خداع.

فعلى الرغم من إجلال عبد الرحمن أباه، وثقته الكاملة برجاحة عقله، وعظمة نفسه وخُلُقِه، فإن ولاءه لاقتناعه بقي فارضاً سيادته عليه. ولم يُغْرِه إسلام أبيه باتباعه.

وهكذا بقي واقفاً مكانه، حاملاً مسؤولية اقتناعه وعقيدته، يذود عن آلهة قريش، ويقاتل تحت لوائها قتال المؤمنين المستميتين..

والأقوياء الأصلاء من هذا الطراز، لا يخفى عليهم الحق وإن طال المدى...

فأصالة جوهرهم، ونورٌ وضوحهم وإخلاصهم، يهديانهم إلى الصواب آخر الأمر، ويجمعانهم مع الهدى والخير.

ولقد دقت ساعة الأقدار يومًا، مُعلنة ميلادًا جديدًا لعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق..

لقد أضاءت مصابيح الهدى نفسه فكُنست منها كل ماورثته الجاهلية من ظلام وزُف. ورأى الله الواحد الأحد في كل ما حوله من كائنات وأشياء، وغرست هداية الله ظلّها في نفسه ورُوعه، فإذا هو من المسلمين..!!

ومن فوره نهضَ مُسافرًا إلى رسول الله، أوابًا إلى دينه الحق. وتألّق وجهه أبي بكر تحت ضوء الغبطة وهو يبصر ولده يُبايع رسول الله.

لقد كان في كفره رجلا.. وها هو ذا يُسلم اليوم إسلام الرجال. فلا طمع يدفعه، ولا خوف يسوقه.. إنما هو اقتناع رشيد سديد أفاءته عليه هداية الله وتوفيقه.

وانطلق عبد الرحمن يعوض ما فاتته ببذل أقصى الجهد في سبيل الله، ورسوله، والمؤمنين..

* * *

في أيام الرسول عليه صلاة الله وسلامه، وفي أيام خلفائه من بعده، لم يتخلف عبدالرحمن عن غزو، ولم يقعد عن جهاد مشروع...

ولقد كان له يوم اليمامة بلاء عظيم، وكان لثباته واستبساله دور كبير في كسب المعركة من جيش مسيلمة والمتردين.. بل إنه هو الذي أجهز على حياة «محكم بن الطفيل»، الذي كان العقل المدير لمسيلمة، كما كان يحمي بقوته أهم مواطن الحصن الذي تحصّن جيش الردة في داخله، فلما سقط «محكم» بضربة من عبد الرحمن، وتشتت الذين حوله، انفتح في الحصن مُدخل واسع كبير تدفقت منه مقاتلة المسلمين...

وازدادت خصال عبد الرحمن في ظل الإسلام مضاءً وصقلاً.. فولاؤه لاقتناعه، وتصميمه المطلق على اتباع ما يراه صواباً وحقاً، ورفضه المداجاة والمداهنة..

كل هذا الخلق ظل جوهر شخصيته وجوهر حياته، لم يتخل عنه قط تحت إغراء رغبة، أو تأثير رهبة، حتى في ذلك اليوم الرهيب، يوم قرر معاوية أن يأخذ البيعة ليزيد بحدّ السيف.. فكتب إلى مروان عامله على المدينة كتاب البيعة، وأمره أن يقرأه على المسلمين في المسجد..

وفعل مروان، ولم يكذب يفرغ من قراءته حتى نهض
عبد الرحمن بن أبي بكر ليحول الوجوم الذي ساد المسجد إلى
احتجاج مسموع ومقاومة صادعة فقال:

«والله ما الخيار أردتم لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن
تجعلوها هرقلية.. كلما مات هرقل قام هرقل»..!!

لقد رأى عبد الرحمن ساعتئذ كل الأخطار التي تنتظر
الإسلام لو أنجز معاوية أمره هذا، وحول الحكم في الإسلام من
شورى تختار بها الأمة حاكمها، إلى قيصرية أو كسروية تفرس
على الأمة بحكم الميلاد والمصادفة قيصراً وراء قيصر..!!

* * *

لم يكذب عبد الرحمن يصرخ في وجه مروان بهذه الكلمات
القوارع، حتى أیده فريق من المسلمين على رأسهم الحسين بن
على، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر..

ولقد طرأت فيما بعد ظروف اضطرت الحسين وابن الزبير،
وابن عمر رضى الله عنهم إلى الصمت تجاه هذه البيعة التي قرر
معاوية أن يأخذها بالسيف..

لكن عبد الرحمن بن أبي بكر ظل يجهر ببطلان هذه البيعة،

وبعث إلى معاوية من يحمل مائة ألف درهم، يريد أن يتألفه بها،
فألقاها «ابن الصديق» بعيداً وقال لرسول معاوية:

«ارجع إليه وقل له: إن عبد الرحمن لا يبيع دينه
بدنياه»..

ولما علم بعد ذلك أن معاوية يشدُّ رحاله قادمًا إلى المدينة
غادرها من فوره إلى مكة..

وأراد الله أن يكفيه فتنة هذا الموقف وسوء عُقباه...

فلم يكد يبلغ مشارف مكة ويستقر بها قليلا حتى فاضت إلى
الله رُوحه.. وحمله الرجال على الأعناق إلى أعالي مكة حيث دُفِن
هناك، تحت ثرى الأرض التى شهدت جاهليته..

وشهدت إسلامه..!!

وكان إسلامَ رَجُلٍ صَادِقٍ، حُرٍّ، شُجاع...

عبد الله بن عمرو بن العاص القائت، الأواب

القائت، التائب، العابد، الأواب، الذي نستهل الحديث عنه الآن هو: عبد الله بن عمرو بن العاص..

بقدر ما كان أبوه أستاذًا في الذكاء والدهاء وسعة الحيلة.. كان هو أستاذًا ذا مكانة عالية بين العابدين، الزاهدين، الواضحين..
لقد أعطى العبادة وقته كله، وحياته كلها..

وتملّ بحلاوة الإيمان، فلم يعد الليل والنهار يتسعان لتعبده ونُسكه..

* * *

ولقد سبق أباه إلى الإسلام، ومُذ وضع يمينه في يمين رسول الله

صلى الله عليه وسلم مبايعاً، وقلبه مضاءً كالصبح النضير بنور الله
ونور طاعته..

عَكَفَ أولاً على القرآن الذى كان يتنزل مُنَجَّهاً، فكان كلما
نزلت منه آيات حفظها وفهمها، حتى إذا تَمَّ واكتمل، كان لجميعه
حافظاً..

ولم يكن يحفظه ليكون مجرد ذاكرة قوية، تضمُّ بين دفتيها كتاباً
محفوظاً..

بل كان يحفظه ليعمر به قلبه، وليكون بعد هذا عبده المطيع،
يُحِلُّ ما أَحَلَّ، ويُحرِّم ما حَرَّمَ، ويستجيب له فى كل ما يدعو إليه ثم
يعكف على قراءته، وتدبره، وترتيله، مُتَأَنِّقاً فى روضاته اليبانة،
محبور النفس بما تفيئه آياته الكريمة من غبطة، باكى العين مما تُثيره
من خُشْيَةٍ..!!

كان عبد الله قد خُلِقَ ليكون قَدِيساً عابداً، ولا شىء فى الدنيا
كان قادراً على أن يشغله عن هذا الذى خُلِقَ له، وهُدِىَ إليه..
إذا خرج جيش الإسلام إلى جهاد يلاقى فيه المشركين الذين
يشنون عليه الحروب والعداوة، وجدناه فى مقدمة الصفوف يتحنى
الشهادة بروح مُحبٍّ، وإلحاح عاشق..!!

فإذا وضعت الحرب أوزارها، فأين نراه...؟؟

هناك في المسجد الجامع، أو في مسجد داره، صائم نهاره، قائم ليله، لا يعرف لسانه حديثاً من أحاديث الدنيا مهما يكن حلالاً، إنما هو رَطْبٌ دائماً بذكر الله، تالياً قرآنه، أو مسبحاً بحمده، أو مستغفراً لذنبه..

وحسبنا إدراكاً لأبعاد عبادته ونُسُكه، أن نرى الرسول الذي جاء يدعو الناس إلى عبادة الله، يجد نفسه مضطراً للتدخل كيما يجد من إيغال عبد الله في العبادة...!!

وهكذا، إذ كان أحد وجهي العظة في حياة عبد الله بن عمرو، الكشف عما تزخر به النفس الإنسانية من قدرة فائقة على بلوغ أقصى درجات التعبُّد والتجرُّد والصلاح، فإن وجهها الآخر هو حرص الدين على القصد والاعتدال في نُشْدان كل تفوق واكتمال، حتى يبقى للنفس حماستها وأشواقها..

وحتى تبقى للجسد عافيته وسلامته...!!

لقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عبد الله بن عمرو ابن العاص يقضى حياته على وتيرة واحدة..

وما لم يكن هناك خروجٌ في غزوة، فإن أيامه كلها تتلخص في

أنه من الفَجْرِ إلى الفجر في عبادة موصولة.. صيام وصلاة، وتلاوة قرآن...

فاستدعاه النبي إليه، وراح يدعوه إلى القَصْدِ في عبادته..

قال له الرسول عليه السلام:

«أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، لَا تُفْطِرُ، وَتُصَلِّي اللَّيْلَ،

لَا تَنَامُ...؟؟

«فحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام..

قال عبد الله :

«إني أطيق أكثر من ذلك...»

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«فحسبك أن تصوم من كل جمعة يومين..

قال عبد الله :

«فإني أطيق أكثر من ذلك..»

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«فهل لك إذن في خير الصيام، صيام داود، كان يصوم

يوماً ويفطر يوماً...»

وعاد الرسول عليه الصلاة والسلام يسأله قائلاً:

«وعلمتُ أنك تجمع القرآن في ليلة

«وإني أخشى أن يطول بك العمر

وأن تملَّ قراءته..!!

«اقرأه في كل شهر مرة..

اقرأه في كل عشرة أيام مرة..

«اقرأه في كل ثلاثٍ مرة..

ثم قال له:

«إني أصوم، وأفطر..

«وأصلي، وأنام..

«وأتزوج النساء، فمن رغبَ

عن سُنتي، فليس مني»

ولقد عمَّر عبد الله بن عمرو طويلاً.. ولما تقدمت به السن

وَوَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ كَانَ يَتَذَكَّرُ دَائِمًا نُصَحَ الرَّسُولِ فَيَقُولُ:

«يا ليتني قبلتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللَّهِ»..

إن مؤمناً من هذا الطراز ليصُعب العثور عليه في معركة - أي معركة - تدور رحاها بين جماعتين من المسلمين.

فكيف حملته ساقاه إذن من المدينة إلى «صَفِين» حيث أخذ مكاناً في جيش معاوية في صراعه مع الإمام علي..؟

الحق أن موقف عبد الله هذا، جدير بالتدبر، بقدر ما سيكون بُعد فهمنا له جديراً بالتوقير والإجلال..

رأينا كيف كان «عبد الله بن عمرو» مقبلاً على العبادة إقبالاً كاد يشكّل خطراً حقيقياً على حياته - الأمر الذي كان يشغل بال أبيه دائماً، فيشكوه إلى رسول الله كثيراً.

وفي المرة الأخيرة التي أمره الرسول فيها بالقصد في العبادة وحدّد له مَوَاقِيتَها كان عمرو حاضراً، فأخذ الرسول يد عبد الله، ووضعها في يد عمرو بن العاص أبيه.. وقال له:

«افعل ما أمرتك، وأطع أباك».

وعلى الرغم من أن عبد الله، كان بدينه وبخلقه، مطيعاً لأبويه فقد كان أمر الرسول له، بهذه الطريقة وفي هذه المناسبة ذا تأثير خاص على نفسه.

وعاش عبد الله بن عمرو عمره الطويل لا ينسى لحظة من
نهار تلك العبارة الموجزة.

«افعل ما أمرتك، وأطع أباك».

وتتابعت في موكب الزمن أعوام وأيام..

ورفض معاوية بالشام أن يبايع علياً..

ورفض عليٌّ أن يُذعن لتمرّد غير مشروع..

وقامت الحرب بين طائفتين من المسلمين... ومضت «موقعة

الجمَل».. وجاءت «موقعة صِفِّين».

كان «عمرو بن العاص» قد اختار طريقه إلى جوار مُعاوية

وكان يدرك مدى إجلال المسلمين لابنه «عبد الله» ومدى ثقتهم

في دينه، فأراد أن يحمله على الخروج ليكسب جانب معاوية بذلك

الخروج كثيراً...

كذلك كان «عمرو» يتفاءل كثيراً بوجود عبد الله إلى جواره

في قتال، وهو لا ينسى بلاءه معه في فتوح الشام، ويوم اليرموك.

فحين همّ بالخروج إلى «صِفِّين» دعاه إليه وقال له:

يا عبد الله: تهباً للخروج، فإنك ستقاتل معنا..
وأجابه عبد الله:

«كيف..؟ وقد عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
ألا أضع سيفاً على عنق مسلم أبداً..؟؟

وحاول «عمرو» بدهائه إقناعه بأنهم إنما يريدون بخروجهم
هذا أن يصلوا إلى قتلة عثمان وأن يثأروا لدمه الزكى.

ثم ألقى مفاجأته الحاسمة قائلاً لولده:

«أتذكر يا عبد الله، آخر عهدٍ عهدَهِ إليك رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين أخذ بيدك فوضعها في يدي
وقال لك: أطع أباك؟..

«فإنى أعزم عليك الآن أن تخرج معنا وتقاتل».

وخرج عبد الله بن عمرو طاعةً لأبيه، وفي عزمه ألا يحمل
سيفاً ولا يقاتل مسلماً..

ولكن، كيف يتمُّ لا هذا..؟؟

حسبه الآن أن يخرج مع أبيه.. أما حين تكون المعركة فله
ساعتئذ أمر يقضيه..!

وَنَسِبَ الْقِتَالُ حَامِيًا ضَارِيًا..

ويختلف المؤرخون فيما إذا كان عبد الله قد اشترك في بدايته أم لا..

ونقول: بدايته.. لأن القتال لم يلبث إلا قليلا، حتى وقعت واقعة جعلت «عبد الله بن عمرو» يأخذ مكانه جهاراً ضد الحرب، وضد معاوية..

وذلك أن «عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ»^(١) كان يقاتل مع الإمام عليّ، وكان «عمار» موضع إجلال مطلق من أصحاب الرسول.. وأكثر من هذا، فقد تنبأ في يوم بعيد بمصرعه وبقتلته.

كان ذلك والرسول وأصحابه يبنون مسجدهم بالمدينة إثر هجرتهم إليها.. وكانت الأحجار عاتية ضخمة لا يطيق أشد الناس قوة أن يحمل منها أكثر من حجر واحد.. لكن «عَمَّارًا» من فرط غبطته ونشوته، راح يحمل حَجَرَيْنِ حَجَرَيْنِ. وبَصُرَ به الرسول فتملأه بعينين دامعتين وقال:

«وَيْحَ ابْنِ سُمَيَّةَ، تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ»

(١) سبقت ترجمته.

سمع كل أصحاب الرسول المشتركين في البناء يومئذ هذه النبوءة، ولا يزالون لها ذاكرين.

وكان عبد الله بن عمرو وأحد الذين سمعوا.

وفي بدء القتال بين جماعة عليّ وجماعة معاوية، كان «عمار» يصعد الروابي العالية ويحرّض بأعلى صوته ويصيح: «اليوم نلقى الأجيّة - محمدًا، وصحبَه».

وتواصى بقتله جماعة من جيش معاوية، فسددوا نحوه رميةً آثمة، نقلته إلى عالم الشهداء الأبرار.

وسرى النبأ كالريح أن «عمارًا» قد قُتل..

وانتفض عبد الله بن عمرو ثائرًا مُهتاجًا:

- أو قد قُتل عمار..؟؟

- وأنتم قاتلوه..؟؟

- إذن، فأنتم الفئة الباغية.

- أنتم المقاتلون على ضلالة!!

وانطلق في جيش معاوية كالنذير، يُشبّط عزائمهم؛ وهتف فيهم

أنهم بُغَاة، لأنهم قتلوا عمارًا وقد تنبأ له الرسول منذ سبع وعشرين سنة على مَلَأ من أصحابه بأنه ستقتله الفِئَةُ الباغية..
· ومُحِلَّتْ مقالة عبد الله إلى معاوية، ودعا عَمْرًا وولده عبد الله، وقال لعمره:

- «أَلَا تُكْفِّ عَنَا مَجْنُونَكَ هَذَا..؟»

قال عبد الله:

- «مَا أَنَا بِمَجْنُونٍ. وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِعِمَارٍ: تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ»

قال له معاوية:

«فَلَمْ خَرَجْتَ مَعَنَا..؟»

قال عبد الله:

- «لَآنَ رَسُولَ اللَّهِ أَمَرَنِي أَنْ أَطِيعَ أَبِي، وَقَدْ أَطَعْتُهُ فِي الْخُرُوجِ، وَلَكِنِّي لَا أَقَاتِلُ مَعَكُمْ».

وإِذْ هُمَا يَتَحَاوَرَانِ دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ مَنْ يَسْتَأْذِنُ لِقَاتِلِ عِمَارٍ فِي الدَّخُولِ، فَصَاحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو.
«إِذْنٌ لَهُ، وَبَشَرُهُ بِالنَّارِ»

وَأَفْلَتَتْ مَغَايِظَ مَعَاوِيَةَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ طُولِ أَثَاتِهِ، وَسَعَةِ حِلْمِهِ،
وَصَاحَ بِعَمْرُو: «أَوْ مَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ»..

وعاد عبد الله في هدوء المتقين واطمئنانهم، يؤكد لمعاوية أنه
ما قال إلا الحق، وأن الذين قتلوا عمَّارًا ليسوا إلا بُغاة..

والتفت صَوَّبَ أبيه وقال:

- «لولا أن رسول الله أمرني بطاعتك

ما سِرْتُ معك هذا المسير»..

وخرج معاوية وعمرو يتفقدان جيشهما، فرُوعا حين سمعوا
الناس جميعًا يتحدثون عن نبوءة الرسول لعمار:

«تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ».

وأحسَّ عمرو ومعاوية أن هذه المهمة تُوشِكُ أن تتحول إلى
نكوص عن معاوية وتمرد عليه.. ففكَّرا حتى وجدا حيلتهما التي
مُضِيًّا يَبْثَانِهَا فِي النَّاسِ..

قالا:

- «نعم. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمار

ذات يوم: تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ..

وَنُبُوءَةُ رَسُولِ اللَّهِ حَقٌّ..

وَهَا هُوَ ذَا عَمَّارٍ قَدْ قُتِلَ..

«فَمَنْ قَتَلَهُ..؟؟»

«إِنَّمَا قَتَلَهُ الَّذِينَ خَرَجُوا بِهِ، وَحَمَلُوهُ مَعَهُمْ إِلَى

الْقِتَالِ»...!!!

وَفِي مِثْلِ هَذَا الْهَرَجِ يُمْكِنُ لَأَيِّ مَنْطِقٍ أَنْ يَرُوجَ، وَهَكَذَا رَاجَ
مَنْطِقُ مَعَاوِيَةَ وَعُمَرُو..

وَاسْتَأْنَفَ الْفَرِيقَانِ الْقِتَالَ..

وَعَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرُو إِلَى مَسْجِدِهِ، وَعِبَادَتِهِ..

وَعَاشَ حَيَاتِهِ لَا يَمْلُؤُهَا بِغَيْرِ مَنَاسِكِهِ وَتَعْبُدِهِ..

غَيْرَ أَنْ خَرُوجَهُ إِلَى «صِفِّينَ» مُجَرَّدُ خَرُوجِهِ، ظَلَّ مَبْعَثَ قَلْقٍ لَهُ
عَلَى الدَّوَامِ.. فَكَانَ لَا تُلَمُّ بِهِ الذِّكْرَى حَتَّى يَبْكِي وَيَقُولُ:

«مَالِي، وَلِصِفِّينَ...؟؟»

«مَالِي، وَلِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ»...؟؟

و ذات يوم، وهو جالس في مسجد الرسول مع بعض أصحابه
مر بهم «الحسين بن علي» رضى الله عنه، فتبادلا السلام...
ولما مضى عنهم قال عبد الله لمن معه:

«أَتُحِبُّونَ أَنْ أَخْبِرَكُمْ بِأَحَبِّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى أَهْلِ
السَّمَاءِ...؟»

«إِنَّهُ هَذَا الَّذِي مَرَّ بِنَا الْآنَ.. الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ..
«وإِنَّهُ مَا كَلَّمَنِي مِنْذُ صِفِّينَ...»

«وَلَا أَنْ يَرْضَى عَنِّي، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ...!!»
واتفق مع أبي سعيد الخُدْرِي على زيارة الحسين..
وهناك في دار الحسين تَمَّ لِقَاءُ الْأَكْرَمِينَ..
وبدأ عبد الله بن عمرو والحديث، فأقْبَى عَلَى ذِكْرِ صِفِّينَ فَسَأَلَهُ
الحسين مُعَاتِبًا:

«مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى الْخُرُوجِ مَعَ مُعَاوِيَةَ...؟؟»

قال عبد الله:

«ذات يوم شكاني عمرو بن العاص إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقال له:

«إن عبد الله يصوم النهار كله، ويقوم الليل كله..

فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«يا عبد الله. صَلِّ ونم.. وَصُمْ وأفطر.. وَأَطِيعْ أباك..

«ولما كان يوم صفين أقسم عَلَى أبى أن أخرج معهم،

فخرجت...

«ولكن، والله ما اخْتَرْتُ سِيفًا، ولا طَعَنْتُ بَرْمَحَ،

ولا رَمَيْتُ بِسَهْمٍ»..!!

وبينما هو يتوكل الثانية والسبعين من عمره المبارك..

وإذ هو فى مُصَلَّاه، يتضرَّع إلى ربه، ويسبح بحمده، دُعَى إلى
رحلة الأبد، فلبَّى الدعاء فى شوق عظيم..

وإلى إخوانه الذين سبقوه بالحسنَى، ذهبت روحه تسعى
وتطير..

والبشير يدعوها من الرفيق الأعلى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ *

ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً *

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

أَبُو سَفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

إنه أبو سفيان آخر، غير أبي سفيان بن حرب..
وإن قصته، هي قصة الهدى بعد الضلال.. والحب بعد
الكراهية.. والسعادة بعد الشقوة..
هي قصةُ رحمةِ الله الواسعة حين تفتح أبوابها للاجئ ألقى
نفسه بين يدي الله بعد أن أضناه طول اللُّغوب..!!
تصوّروا عشرين عاماً قضاها «ابن الحارث» في عداوة
موصولة للإسلام..!!

عشرون عاماً، منذ بُعثَ النبي عليه السلام، حتى اقترب يوم
الفتح العظيم، وأبو سفيان بن الحارث يشدُّ أزر قريش وحلفائها،

ويهبو الرسول بشعره، ولا يكاد يتخلف عن حشد تحشده قريش
لقتال..!!

وكان إخوته الثلاثة: نوفل، وربيعة، وعبد الله، قد سبقوه إلى
الإسلام..

وأبو سفيان هذا، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ
هو ابن الحارث بن عبد المطلب..

ثم هو أخو النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، إذ
أرضعته حليلة السعدية مرضعة الرسول بضعة أيام..

و ذات يوم نادته الأقدار لمصيره السعيد، فنادى ولده
«جعفرا»، وقال لأهله: إنا مسافران..

إلى أين يا بن الحارث..؟؟

- إلى رسول الله لنسلم معه الله رب العالمين..

ومضى يقطع الأرض بفرسه ويطويها طَيَّ التائبين..

وعند الأبواء أبصر مُقدمة جيش لجب، وأدرك أنه الرسول
قاصداً مكة ليفتحها..

وفكّر ماذا يصنع..؟؟

إن الرسول قد أهدر دمه من طول ما حمل سيفه ولسانه ضد الإسلام، مقاتلاً وهاجياً..

فإذا رآه أحد من الجيش، فسيسارع إلى القصاص منه..

وإن عليه أن يحتال للأمر حتى يلقي نفسه بين يدي رسول الله أولاً، وقبل أن تقع عليه عين أحد من المسلمين..

وتنكر أبو سفيان بن الحارث حتى أخفى معالِه، وأخذ بيد ابنه جعفر، وسار مشياً على الأقدام شوطاً طويلاً، حتى أبصر رسول الله قادماً في كوكبة من أصحابه، فتنحى حتى نزل الركب..

وفجأة ألقى بنفسه أمام الرسول مُزججاً قناعه فعرفه الرسول، وحول وجهه عنه، فأتاه أبو سفيان من الناحية الأخرى، فأعرض النبي صلى الله عليه وسلم عنه..

وصاح أبو سفيان وولده جعفر:

«نشهد أن لا إله إلا الله

ونشهد أن محمداً رسول الله»..

واقترب من النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً:

«لا تثريب يا رسول الله»

وأجابه الرسول:

«لا تثريب يا أبا سفيان»..

ثم أسلمه إلى علي بن أبي طالب، وقال له:

«عَلِّم ابن عمك الوضوء والسنة وروح به إلى»..

وذهب به «علي» ثم رجع فقال له الرسول:

«نادِ في الناس أن رسول الله قد رضى عن أبي سفيان

فارضوا عنه»..

لحظة زمن، يقول الله لها: كوني مُباركة، فتطوى آمادًا وأبعادًا

من الشقوة والضلال، وتفتح أبواب رحمة ما لها حدود..!!



لقد كاد أبو سفيان يسلم، بعد أن رأى في بدر وهو يقاتل مع

قريش ما حَيَّرَ لُبَّهُ..

ففى تلك الغزوة تخلف أبو هب وأرسل مكانه العاص بن

هشام..

وانتظر أبو هب أخبار المعركة بفارغ صبره وبدأت الأنباء

تأتى حاملة هزيمة قريش المنكرة..

و ذات يوم، وأبو لهب مع نفر من القرشيين يجلسون عند زمزم،
إذ أبصروا فارساً مقبلاً دنا منهم إذ هو: أبو سفيان بن الحارث..
ولم يمهله أبو لهب، فناداه: «هَلُمَّ إِيَّايَا بن أخى، فعندك لَعمرى
الخبر.. حدثنا كيف كان أمر الناس؟؟؟

قال أبو سفيان بن الحارث:

«والله، ما هو إلا أن لقينا القوم حتى مَنَحْنَاهُمْ أَكْتَفَانَا،
يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا...
«وَأَيْمُ اللَّهِ مَا لَمْتُ قَرِيشًا.. فلقد لَقِينَا رَجَالًا بِيضًا عَلَى
خَيْلٍ بُلُقٍ، يَبِينُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، مَا يَشْبِهُهَا شَيْءٌ، وَلَا
يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ»...!!

وأبو سفيان يريد بهذا أن الملائكة كانت تقاتل مع الرسول
والمسلمين.. فما باله لم يُسلم يومئذ وقد رأى ما رأى..؟؟
إن الشك طريق اليقين، وبقدر ما كانت شكوك أبي الحارث
عنيدة وقوية، فإن يقينه يوم يجيء سيكون صلباً قوياً..
ولقد جاء يوم يقينه وهُده.. وأسلم - كما رأينا - لله رب
العالمين..



ومن أولى لحظات إسلامه، راح يسابق الزمان عابداً، ومجاهداً،
ليمحو آثار ماضيه، وليعوض خسائره فيه..

خرج مع الرسول فيما تلا فتح مكة من غزوات..
ويومَ حُنَيْنٍ، حيث نصب المشركون للمسلمين كميناً خطيراً،
وانقضوا عليهم فجأة من حيث لا يحتسبون انقضاضاً وبيلاً أطار
صواب الجيش المسلم، فولى أكثر أجناده الأدبار وثبت الرسول
مكانه ينادى:

«إلى أيها الناس...»

«أنا النبي لا كذب...»

«أنا ابن عبد المطلب...»

في تلك اللحظات الرهيبة، كانت هناك قلة لم تذهب بصوابها
المفاجأة..

وكان منهم «أبو سفيان بن الحارث» وولده «جعفر»..

لقد كان أبو سفيان يأخذ بلجام فرس الرسول، وحين رأى
ما رأى أدرك أن فرصته التي بحث عنها قد أهلت.. تلك هي أن
يقضى نجه شهيداً في سبيل الله، وبين يدَي رسوله..

وراح يتشبَّث بِمَقْوَدِ الفرس بيسراه، ويُرْسِل السيف في نحور
المشركين يميناه.

وعاد المسلمون إلى مكان المعركة حول نبيهم، وكتب الله لهم
النصر المبين..

ولما انجلى غبارها: نظر الرسول فوجد مؤمناً يتشبَّث بمقود
فرسه..

إنه هو، لا يزال مكانه منذ بدأت المعركة حتى انتهت، وتَمَلَّاهُ
الرسول ثم قال

«مَنْ هَذَا...؟؟»

«أخى أبو سفيان بن الحارث...؟؟»

وما كاد أبو سفيان يسمع قول الرسول: «أخى»...

حتى طار فؤاده من الفرح والشرف، فأكبَّ على قدمي
الرسول يقبلهما، ويغسلهما بدموعه...

وتحرَّكت شاعريته فراح يغبط نفسه على ما أنعم الله عليه من
شجاعة وتوفيق:

لقد عَلِمْتُ أَفْنَاءَ كَعْبٍ وعامر غداة حُنَيْنٍ حينَ عَمَّ التَضَعُّعُ

بأنى أخو الهيجاء، أركب حذها أمام رسول الله لا أتنعج
رجاء ثواب الله، والله راحم إليه - تعالى - كل أمر سيرجع

* * *

وأقبل «أبو سفيان بن الحارث» على العبادة إقبالا عظيما،
وبعد رحيل الرسول عن الدنيا، تعلق روحه بالموت ليلحق
برسول الله في الدار الآخرة.. وعاش ما عاش والموت أمنية
حياته..

و ذات يوم شاهده الناس فى البقيع، يحفر لحداء، ويسويه
وهيئه.. فلما أبدوا دهشهم مما يصنع قال لهم
«إنى أعد قبرى»...

وبعد ثلاثة أيام لا غير، كان راقدا في بيته، وأهله من حوله
يبيكون ..

وفتح عينيه عليهم فى طمانينة سابعة وقال لهم:
«لا تبكوا علىّ، فإنى لم أتنطف بخطيئة منذ
أسلمت»..!!
وقبل أن يحنى رأسه على صدره، لوّح به إلى أعلى، مُلقيا على
الدنيا تحية الوداع..!!

عمران بن حصين شبيه الملائكة!

عام خيبر، أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مبايعاً..
ومنذ وضع يمينه في يمين الرسول أصبحت يده اليمنى موضع
تكريم كبير، فألى على نفسه ألا يستخدمها إلا في كل عمل
طيب، وكريم...

هذه ظاهرة تنبئ عما يتمتع به صاحبها من حس دقيق..

و«عمران بن حصين» رضى الله عنه صورة رضية من صور
الصدق، والزهد، والورع، والتفانى في حب الله وطاعته..
وإن معه من توفيق الله ونعمة الهدى لشيئاً كثيراً، ومع ذلك

فهو لا يفتأ يبكى، ويبكى، ويقول:

«يا ليتنى كُنتُ رمادًا، تَذُرُّهُ الرِّيحُ»..!!

ذلك أن هؤلاء الرجال لم يكونوا يخافون الله بسبب ما يدركون من ذنب، فقلما كانت لهم بعد إسلامهم ذنوب.. إنما كانوا يخافونه ويخشونه بقدر إدراكهم لعظمته وجلاله، وبقدر إدراكهم لحقيقة عجزهم عن شكره وعبادته، مهما يَضرُّعُوا، ويركعُوا، ومهما يسجدوا، ويعبدوا..

ولقد سأل أصحابُ الرسول يومًا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا:

«يا رسول الله، ما لنا إذا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قلوبنا، وزهدنا دنيانا، وكأننا نرى الآخرة رَأَى الْعَيْنُ.. حتى إذا خرجنا من عندك، ولقينا أهلنا، وأولادنا، ودنيانا، أَنْكَرْنَا أَنْفُسَنَا..؟؟»

فأجابهم عليه السلام:

«والذى نفسى بيده، لو تدومون على حالكم عندى، لضافتكم الملائكة عِيَانًا، ولكن ساعةً.. وساعةً..»
وسمع «عمران بن حُصَيْن» هذا الحديث، فاشتعلت أشواقه..

وكأنما آلى على نفسه ألا يقعد دون تلك الغاية الجليلة ولو كلفته حياته، وكأنما لم تقنع همته بأن يحيا حياته ساعة.. وساعة.. فأراد أن تكون كلها ساعة واحدة موصولة النجوى والتبلى لله رب العالمين..!!



وفي خلافة أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» أرسله الخليفة إلى البصرة ليُفَقِّه أهلها ويعلمهم.. وفي البصرة حطَّ رحاله، وأقبل عليه أهلها مُنذ عرفوه يتبركون به، ويستضيئون بتقواه..

قال الحسن البصري، وابن سيرين:

«ما قَدِمَ البصرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أَحَدٌ يَفْضَلُ عمران بن حُصَيْنٍ..»

كان «عمران» يرفض أن يشغله عن الله وعبادته شاغل، واستغرق في العبادة، واستوعبته العبادة حتى صار كأنه لا ينتمى إلى عالم الدنيا التي يعيش فوق أرضها وبين ناسها..

أَجَلٌ..

صار كأنه ملك يحيا بين الملائكة، يحادثهم ويحادثونه.. ويصافحهم ويصافحونه..

ولما وقع النزاع الكبير بين المسلمين.. بين فريق «على» وفريق معاوية، لم يقف «عمران بن حصين» موقف الحيدة فحسب، بل راح يرفع صوته بين الناس داعياً إياهم أن يكفوا عن الاشتراك في تلك الحرب، حاضناً قضية السلام خير مُحْتَضَن.. وراح يقول للناس:

«لأنَّ أُرْعَى أَعْنَزَا حَصَنِيَّاتٍ فِي رَأْسِ جَبَلٍ حَتَّى يَدْرِكَنِي الْمَوْتُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُرْمَى فِي أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ بِسَهْمٍ، أَخْطَأُ، أَمْ أَصَابُ»..

وكان يوصى من يلقاه من المسلمين قائلاً:

«الزَّمْ مَسْجِدَكَ»..

«فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْكَ، فَالْزَمْ بَيْتَكَ»..

فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْكَ بَيْتَكَ مِنْ يَرِيدِ نَفْسِكَ وَمَالِكَ فَقَاتِلْهُ»..

وحقق إيمان «عمران بن حصين» أعظم نجاح، حين أصابه مرض مُوجِع لبث معه ثلاثين عاماً، ما ضَجَرَ منه ولا قال: أُوْء.. بل كان مثابراً على عبادته قائماً، وقاعداً، وراقداً..

وكان إذا هَوَّن عليه إخوانه وعُوداه أَمَرَ عِلَّتَه بكلمات مشجعة، ابتسم لهم وقال:

«إِنْ أَحَبَّ الْأَشْيَاءَ إِلَى نَفْسِي، أَحَبُّهَا إِلَى اللَّهِ»..!!

وكانت وصيته لأهله وإخوانه حين أدركه الموت:

«إِذَا رَجَعْتُمْ مِنْ دَفْنِي، فَانْحَرُوا وَأَطْعَمُوا»..

أجل.. لينحروا، وليطعموا.. فموت مؤمن مثل «عمران ابن حصين» ليس موتاً.. إنما هو حفل زفافٍ عظيم، ومجيد، تُزَفُّ فيه رُوحٌ عاليةٌ راضيةٌ إلى جَنَّةٍ عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ...



سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ بَطْلُ الْمَشَاةِ..

أراد ابنه «إياس» أن يُلَخِّصَ فضائله في عبارة واحدة.
فقال:

«ما كَذَبَ أَبِي قَطُّ»..!!

وحسب إنسان أن يُحرز هذه الفضيلة، ليأخذ مكانه العالى بين
الأبرار والصالحين.

ولقد أحرزها «سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ» وهو بها جدير.
كان سَلَمَةُ من رُماة العرب المعدودين، وكان كذلك من
المبرزين في الشجاعة والكرم وفعل الخيرات.

وحين أسلم نفسه للإسلام، أسلمها صادقاً مُنيباً، فصاغها
الإسلام على نَسَقِهِ العظيم.

وسلّمهُ بن الأكوع من أصحاب بيعة الرضوان.

حين خرج الرسول وأصحابه عام ست من الهجرة، قاصدين
زيارة البيت الحرام، وتصدّت لهم قريش تمنعهم.

أرسل النبي إليهم عثمان بن عفان ليخبرهم أن النبي جاء
زائراً، لا مقاتلاً..

وفي انتظار عودة عثمان، سرت إشاعة بأن «قُريشاً» قتلته،
وجلس الرسول في ظلّ الشجرة يتلقى بيعة أصحابه واحداً واحداً
على الموت..

يقول «سلّمهُ»:

«بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت
تحت الشجرة، ثمّ تنحّيت، فلما خَفَّ الناس» قال:
يا سلّمهُ، مالك لا تبائع..؟ قلت: قد بايَعْتُ يا رسول
الله، قال: وأيضاً.. فبايعته..»

ولقد وفّى بالبيعة خير وفاء.

بل وفى بها قبل أن يعطيها، منذ شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله..

يقول:

«غزوتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ومع زيد بن حارثة تسع غزوات».

كان سلمة من أمهر الذين يقاتلون مُشاة، ويرمون بالنبال والرماح.

وكانت طريقته تُشبه طريقة بعض حروب العصابات الكبيرة التى تُتبع اليوم.. فكان إذا هاجمه عدوه تقهقرَ دونه. فإذا أدبر العدو أو وقف يستريح.. هاجمه فى غير هواة..!!

وبهذه الطريقة استطاع أن يطارد وحده، القوة التى أغارت على مشارف المدينة بقيادة عُيَيْنَةَ بن حِصْن الفزارى فى الغزوة المعروفة بغزوة «ذى قَرَد»..

خرج فى أثرهم وحده، وظلَّ يقاتلهم ويرأوغيهم، ويبعدهم عن المدينة حتى أدركه الرسول فى قوة وافرة من أصحابه..

وفي هذا اليوم قال الرسول لأصحابه:

«خَيْرُ رَجَالِنَا - أَيْ مُشَاتِنَا - سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ!!»

* * *

ولم يعرف سَلَمَةُ الْأَسَى وَالْجَزَعُ إِلَّا عِنْدَ مَصْرَعِ أَخِيهِ عَامِرِ
ابْنِ الْأَكْوَعِ فِي حَرْبِ خَيْبَرَ..

وكان عامر يَرْتَجِزُ أَمَامَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ هَاتِفًا:

لَا هُمْ لَوْ لَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا، وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَتَبَّتْ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قَيْنَا

فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ ذَهَبَ «عَامِرٌ» يَضْرِبُ بِسَيْفِهِ أَحَدَ الْمُشْرِكِينَ،
فَانْتَقَى السَّيْفُ فِي يَدِهِ وَأَصَابَتْ نُوَابِتُهُ مِنْهُ مَقْتَلًا.. فَقَالَ بَعْضُ
الْمُسْلِمِينَ:

- «مُسْكِينُ عَامِرٍ، حُرْمُ الشَّهَادَةِ».

عِنْدَئِذٍ - لَا غَيْرَ جَزَعٍ «سَلَمَةُ» جَزَعًا شَدِيدًا، حِينَ ظَنَّ
كَمَا ظَنَّ غَيْرُهُ أَنَّ أَخَاهُ، وَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ خَطَأً، قَدْ حُرِمَ أَجْرُ الْجِهَادِ،
وَتَوَابُ الشَّهَادَةِ.

لكن الرسول الرحيم، سرعان ما وضع الأمور في نصابها حين ذهب إليه سلمة وسأله قائلاً:

- أوصيحي يا رسول الله أن عامراً حَبِطَ عمله..؟

فأجابه الرسول عليه السلام:

«إنه قُتِلَ مجاهداً

«وإن له لأجرين

«وإنه الآن لَيَسْبَحُ

في أنهار الجنة»..!!

وكان «سلمة».. على جوده المفيض أكثر ما يكون جوداً إذا

سُئِلَ بوجه الله..

فلو أن إنساناً سأله بوجه الله أن يمنحه حياته، لما تردّد في

بذلها.

ولقد عرف الناس منه ذلك، فكان أحدهم إذا أراد أن يظفر

منه بشيء قال له: أسألك بوجه الله.. وكان يقول:

«مَنْ لَمْ يُعْطِ بوجه الله، فَبِمَ يُعْطَى»..؟؟

ويوم قُتِلَ عثمان، رضى الله عنه، أدرك المجاهد الشجاع أن
أبواب الفتنة قد فُتحت على المسلمين.

وما كان له وهو الذى قضى عمره يقاتل بين إخوانه أن
يتحول إلى مقاتل ضد إخوانه..!

أجل.. إن الرجل الذى حيّا الرسول مهارته فى قتال
المشركين، ليس من حقه أن يُقاتل بهذه المهارة مؤمناً، أو يقتل بها
مسلياً..

ومن ثم، فقد حمل متاعه وغادر المدينة إلى الرَبْذَةِ.. نفس
المكان الذى اختاره «أبو ذر» من قبل مُهاجراً له، ومَصيراً.
وفى الرَبْذَةِ عاش سلمة بقية حياته، حتى كان يومٌ، عام أربع
وسبعين من الهجرة، فأخذه الشوق إلى المدينة، فسافر إليها
زائراً.. وقضى بها يوماً، وثانياً..

وفى اليوم الثالث مات.

وهكذا ناداه ثراها الحبيب الرطيب لِيُضْمَهُ تحت جوانحه
ويُؤْوِيَهُ مع مَنْ آوى قَبْلَهُ من الرِّفاق المُباركين، والشهداء
الصّالحين.

عبد الله بن الزبير أَيُّ رَجُلٍ .. وَأَيُّ شَهِيدٍ؟!

كان جنيناً مباركاً في بطن أمه، وهى تقطع الصحراء اللاهبة
مغادرة مكة إلى المدينة على طريق الهجرة العظيم.

وهكذا قَدَّرَ لعبد الله بن الزبير أن يهاجر مع المهاجرين وهو
لم يخرج إلى الدنيا بعد، ولم تتشقق عنه الأرحام...!!

وما كادت أمه «أسماء» رضى الله عنها وأرضاها، تبلغ «قباء»
عند مشارف المدينة، حتى جاءها المخاض ونزل المهاجر الجنين
أرض المدينة في نفس الوقت الذى كان ينزلها المهاجرون من
أصحاب رسول الله...!!

وَحَمَلَ أول مولود فى الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم في داره بالمدينة فقبله وحنَّكه، وكان أول شيء دخل جوف
«عبد الله بن الزبير» ريق الرسول الكريم.

واحتشد المسلمون في المدينة، وحملوا الوليد في مهده، ثم
طوفوا به في شوارع المدينة كلها مُهلِّلين مكبرين.

ذلك أن اليهود حين نزل الرسول وأصحابه المدينة كُتبتوا
واشتعلت أحقادهم، وبدءوا حرب الأعصاب ضد المسلمين،
فأشاعوا أن كهنتَهُمْ قد سحروا المسلمين وسلَّطوا عليهم العقم،
فلن تشهد المدينة منهم وليداً جديداً..

فلما أهلك عبد الله بن الزبير عليهم من عالم الغيب، كان وثيقة
دَمَع بها القدرُ إفكَ يهود المدينة وأبطل بها كيدَهُمْ وما يفترون...!!

إن «عبد الله» لم يبلغ مبلغ الرجال في عهد رسول الله صلى
الله عليه وسلم. ولكنه تلقى من ذلك العهد، ومن الرسول نفسه
بحكم اتصاله الوثيق به، كل «خامات» رجولته ومبادئ حياته
التي سنراها فيما بعد ملء الدنيا وحديث الناس...

لقد راح الطفل ينمو نمواً سريعاً، وكان خارقاً في حيويته،
وفطنته وصلابته...

وازدى مرحلة الشباب، فكان شبابه طهراً، وعِفَّةً، ونُسكاً،

وبطولة تفوق الخيال..

ومضى مع أيامه وقدره، لا تتغير خلائقه، ولا تنبو به رغائبه..
إنما هو رجل يعرف طريقه، ويقطعه بعزيمة جبارة، وإيمان وثيق
وعجيب...

وفي فتح إفريقية، والأندلس، والقسطنطينية. كان - وهو لم
يجاوز السابعة والعشرين - بطلاً من أبطال الفتوح الخالدين..
وفي معركة إفريقية بالذات وقف المسلمون في عشرين ألف
جندى أمام عدو قوام جيشه مائة وعشرون ألفاً..

ودار القتال. وغشى المسلمين خطرٌ عظيم..
وألقى «عبد الله بن الزبير» نظرة على قوات العدو فعرف
مصدر قوتهم، وما كان هذا المصدر سوى ملك البربر وقائد
الجيش، يصيح في جنوده ويحرضهم بطريقة تدفعهم إلى الموت دفعاً
عجيباً..

وأدرك «عبد الله» أن المعركة الضارية لن يحسمها سوى
سقوط هذا القائد العنيد...

ولكن أين السبيل إليه، ودون بلوغه جيش الجبّ، يقاتل
كالإعصار...؟؟

يَبْدُ أَنْ جَسَارَةَ «ابن الزبير» وإقدامه لم يكونا موضع تساؤل
قط...!!

هنالك نادى بعض إخوانه، وقال لهم:

«احموا ظهري، واهجموا معي»...

وشق الصفوف المتلاحمة كالسهم صامداً نحو القائد، حتى إذا
بلغه، هوى عليه في كَرَّة واحدة فهوًى، ثم استدار بمن معه إلى
الجنود الذين كانوا يحيطون بملكهم وقائدهم فصرعوههم.. ثم
صاحوا: الله أكبر...

ورأى المسلمون رايتهم ترتفع هناك، حيث كان يقف قائد
البربر يصدر أوامره ويحرض جيشه، فأدركوا أنه النصر، فشددوا
شدة رجل واحد، وأنهى كل شيء لصالح المسلمين..

وعلم قائد الجيش المسلم «عبد الله بن أبي سرح» بالدور
العظيم الذى قام به «ابن الزبير»، فجعل مكافأته أن يحمل بنفسه
بُشرى النصر إلى المدينة، وإلى خليفة المسلمين.
«عثمان بن عفان»..

عَلَى أَنْ بطولته فى القتال كانت برغم تفوقها وإعجازها

تتوارى أمام بطولته في العبادة.

فهذا الذى يمكن أن يَبْتَغِ فيه الرَّهْوَ، وثنى الأعطاف، أكثر
مِنْ سبب، يذهلنا بمكانه الدائم والعالى بين النَّاسِكين العابدين...
فلا حَسْبُهُ، ولا شِبَابُهُ، ولا مكانته ورفعته، ولا أمواله،
ولا قوته... لا شيء من ذلك كله، استطاع أن يحول بين
«عبد الله بن الزبير» وبين أن يكون العابد الذى يصوم يومه،
ويقوم ليله، ويخشع لله خشوعاً يبهز الألباب..

قال عمر بن عبد العزيز يوماً لابن أبى مُلَيْكَةَ: صِفْ لَنَا
عبد الله بن الزبير.. فقال:

«والله، ما رأيتُ نفساً رُكِّبتَ بين جَنِّينِ مثل نفسه...
«ولقد كان يدخل فى الصلاة، فيخرج من كل شيء
إليها...»

«وكان يركع أو يسجد، فتقف العصافير فوق ظهره
وكاهله، لاحتسبه من طول ركوعه وسجوده إلا جداراً،
أو ثوباً مطروحاً...»

«ولقد مرَّتْ قذيفة منجنيق بين لحيته و صدره وهو
يصلى، فوالله ما أحسَّ بها ولا اهتزَّ لها، ولا قطع من

أجلها قراءته، ولا تعجل ركوعه»!!..!!

إن الأنبياء الصادقة التي يروها التاريخ عن عبادة
«ابن الزبير» لشيء يشبه الأساطير...

فهو في صيامه، وفي صلاته، وفي حجه، وفي علو هيمته، وشرف
نفسه...

في سهره الليل - طوال عمره - قانتاً وعبداً..

وفي ظمأ الهواجر - طوال عمره - صائماً مجاهداً...

وفي إيمانه الوثيق بالله، وفي خشيته الدائمة له..

هو في كل هذا نسيج وحده..!!

سئل عنه ابن عباس فقال على الرغم مما كان بينها من
خلاف:

«كان قارئاً لكتاب الله، مُتَّبِعاً سُنَّةَ رَسُولِهِ.. قانتاً لله..

صائماً في الهواجر من مخافة الله.. ابن حواري رسول

الله.. وأمه «أسماء» بنت الصديق.. وخالته «عائشة»

زوجة رسول الله.. فلا يجهل حقه إلا من أعماه

الله»!!..!!

وهو في قوة خلقه وثبات سجاياه، يُزرى بثبات الجبال..
وَاضِحٌ.. شريفٌ.. قوى.. على استعداد دائم لأن يدفع حياته
ثمنًا لصراحته، واستقامة نهجه..

أثناء نزاعه وحروبه مع الأمويين، زاره «الحُصَيْن بن نَمِير» قائد
الجيش الذي أرسله يزيد لإخماد ثورة بن الزُّبَيْر..

زاره إثر وصول الأنباء إلى مكة بموت «يزيد»..

وعرض عليه أن يذهب معه إلى الشام، ويستخدم «الحصين»
نفوذه العظيم هناك في أخذ البيعة لابن الزبير..

فرفض «عبد الله» هذه الفرصة الذهبية، لأنه كان مقتنعًا
بضرورة القصاص من جيش الشام جزاء الجرائم البشعة التي
ارتكبها رجاله خلال غزوهم الفاجر لمدينة - رسول الله - خدمة
لأطماع الأمويين..

وقد نختلف مع «عبد الله» في موقفه هذا، وقد نتمنى لو أنه
آثر السلام والصفح، واستجاب للفرصة النادرة التي عرضها عليه
«الحصين» قائد يزيد...

ولكنَّ وقفة الرجل - أيَّ رجلٍ - إلى جانب اقتناعه
واعتقاده.. ونبذه الخداع والكذب، أمر يستحق الإعجاب
والاحترام..

وعندما هاجمه الحجاج بجيشه، وفرض عليه وعلى مَنْ معه حصاراً رهيباً، كان من بين جنده فرقة كبيرة من الأحباش، وكانوا من أمهر الرُّماة والمقاتلين..

ولقد سمعهم يتحدثون عن الخليفة الراحل «عثمان» رضى الله عنه حديثاً، لا وَرَعَ فيه ولا إنصاف، فعنفهم وقال لهم: «والله، ما أَحِبُّ أن أُسْتَظْهَرَ عَلَى عدوى بمن يُبْغِضُ عُثمان»..!!

ثم صرفهم عنه في محنة هو فيها محتاج للعون، حاجة الفريق إلى أُمِّل..!!

إنَّ وضوحه مع نفسه ، وصدقته مع عقيدته ومبادئه، جعلاه لا يبالي بأن يخسر مائتين من أكفأ الرُّماة، لم يَعدَّ دينهم موضع ثقته واطمئنانه، مع أنه في معركة مَصِير طاحنة، وكان من المحتمل كثيراً أن يغير اتجاهها بقاء هؤلاء الرُّماة الأكفاء بجانبه..!!

ولقد كان صموده في وجه «معاوية» وابنه «يزيد» بطولة خارقة حقاً...

فقد كان يرى أن «يزيد بن معاوية بن أبي سفيان» آخر

رجل يصلح لخلافة المسلمين، إن كان يصلح على الإطلاق.. وهو مُحَقِّقٌ في رأيه، فـ«يزيد» هذا كان فاسدًا في كل شيء.. لم تكن له فضيلة واحدة تشفع لجرائمه وآثامه التي رواها لنا التاريخ..

فكيف يبايعه ابن الزبير..؟؟

لقد قال كلمة الرفض قوية صادعة لمعاوية وهو حَيٌّ..

وهاهو ذا يقولها ليزيد بعد أن ضار خليفة، وأرسل إلى ابن الزُّبَيْرِ يتوعده بشرٍّ مصيرٍ..

هنالك قال ابن الزُّبَيْرِ:

«لا أبايع «السَّكِر» أبدًا»...

ثم أنشد:

ولا أَلِينُ لغير الحق أسأله حتى يلين لِضُرْسِ الماضِغِ الحَجَرُ

وظلَّ «ابن الزُّبَيْرِ» أميرًا للمؤمنين، مُتَّخِذًا من «مكة المكرمة» عاصمة خلافته، باسطًا حكمه على الحجاز، واليمن، والبصرة، والكوفة، وخُرَاسان، والشام كلها عدا «دمشق» بعد أن بايعه أهل هذه الأمصار جميعًا...

ولكن الأمويين لا يقرُّ قرارهم، ولا يهدأ بالهم، فيشنون عليه حروباً موصولة، ييؤون في أكثرها بالهزيمة والخذلان..

حتى جاء عهد «عبد الملك بن مروان» حين ندب لمهاجمة «عبد الله» في مكة واحداً من أشقى بني آدم وأكثرهم إيغالا في القسوة والإجرام..

ذلكم هو «الحجاج الثقفي» الذي قال عنه «الإمام العادل عمر بن عبد العزيز»:

«لو جاءت كل أمة بخطاياها، وجئنا نحن بالحجاج وحده، لرجحناهم جميعاً»!!!



ذهب الحجاج على رأس جيشه ومرتزقته لغزو مكة عاصمة ابن الزبير، وحاصرها وأهلها قُرابة ستة أشهر مانعاً عن الناس الماء والطعام، كي يحملهم على ترك «عبد الله بن الزبير» وحيداً، بلا جيش وبلا أعوان.

وتحت وطأة الجوع القاتل استسلم الأكثرون، ووجد عبد الله نفسه، وحيداً، أويكاد.. وعلى الرغم من أن فُرص النجاة بنفسه وبحياته كانت لا تزال مُهيأة له، فقد قرر أن يحمل مسؤوليته إلى

النهاية، وراح يقاتل جيش الحجاج في شجاعة أسطورية، وهو يومئذ في السبعين من عمره..!!

ولن نبصر صورة أمينة لذلك الموقف الفذ إلا إذا أَصَغَيْنَا للحوار الذي دار بين عبد الله وأمه. العظيمة المجيدة «أساء بنت أبي بكر» في تلك الساعات الأخيرة من حياته.

لقد ذهب إليها ، ووضع أمامها صورة دقيقة لموقفه، وللمصير الذي بدا واضحاً أنه ينتظره..

قالت له «أساء»:

«يا بني: أنت أعلم بنفسك - إن كنت تعلم أنك على حق، وتدعو إلى حق، فاصبر عليه حتى تموت في سبيله، ولا تَمَكَّنْ من رقبتك غِلْمَانِ بَنِي أُمَيَّةٍ..
«وإن كنت تعلم أنك أردت الدنيا، فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قُتِلَ معك».

قال عبد الله:

«والله يا أُمَّاهُ، ما أردت الدنيا ولا رَكَنْتُ إليها.
«وما جُرْتُ - في حكم الله أبداً، ولا ظلمتُ، ولا غدرتُ»..

قالت أمه أساء:

«إني لأرجو الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن
سَبَقْتَنِي إلى الله أو سَبَقْتُكَ.

«اللهم ارحم طول قيامه في الليل، وظمأه في الهواجر،
وبرّه بأبيه وبى..

«اللهم إني أسلمته لأمرِك فيه، ورضيتُ بما قضيت،
فأثبني في عبد الله بن الزبير ثواب الصابرين
الشاكرين.!»

وتبادلا معاً عناق الوداع وتحيته.

وبعد ساعة من الزمان انقضت في قتال مرير غير متكافئ،
تلقى الشهيد العظيم ضربة الموت، في وقت استأثر الحجاج فيه
بكل ما في الأرض من حقارة ولؤم، فأبى إلا أن يصلب الجثمان
الهامد، تشفياً وخسة...!!

وقامت أمه، وعمرها يومئذ سبع وتسعون سنة - قامت لترى
ولدها المصلوب.

وكالطَّود الشامخ وقفت تَجَاهَهُ لا تريم.. واقترب الحجاج منها
في هوان وذِلَّة. قائلاً لها:

- يا أمّاه، إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد أوصاني
بك خيراً، فهل لك من حاجة..؟

فصاحت به قائلة:

«لستُ لك بأمّ..»

إنما أنا أمُّ هذا المصلوب على الشَّيْثَةِ..

«وما بي إليكم حاجة...»

«ولكنّي أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال: «يُخْرَجُ مِنْ ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ..»

«فأما الكذاب فقد رأيناه. وأما المُبِير، فلا أراه إلا

أنت!!»

وتقدم منها عبد الله بن عمر رضى الله عنه مُعَزِّياً، وداعياً إياها

إلى الصبر، فأجابته قائلة:

«وماذا يَمْنَعُنِي مِنَ الصبر، وقد أُهْدِيَ رَأْسُ يَحْيَى بْنِ

زَكَرِيَّا إِلَى بَغْيٍ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ»!!..

يا لعظمتك، يا بنة الصديق...!!

أهناك كلمات أروع من هذه تُقال للذين فَصَلُوا رأس
عبد الله بن الزبير عن جسده قبل أن يصلبوه...؟؟

أَجَلٌ.. إن يَكُنْ رأس «ابن الزبير» قد قُدم هدية للحجاج
ولعبد الملك.. فإن رأس نبي كريم هو يحيى عليه السلام قد قدم
من قبل هدية لـ«سالمى».. بَغْيٍ حقيرة من بنى إسرائيل!!
ما أروع التشبيه، وما أصدق الكلمات.

* * *

وبعد، فهل كان يمكن لعبد الله بن الزبير أن يحيا حياته دون
هذا المستوى البعيد من التَّفَوُّق، والبطولة والصلاح، وقد رَضِعَ
لِإِبن أُم من هذا الطراز...؟؟

سلام على عبد الله..

وسلام على أسماء..

سلام عليهما في الشهداء الخالدين.

وسلامٌ عليهما في الأبرار المتقين.

عبد الله بن العباس حبر هذه الأمة

يُشَبِّه ابنُ عباس، عبدَ الله بن الزبير في أنه أدرك الرسول وعاصره وهو غلام، ومات الرسول قبل أن يبلغ ابن عباس سنَّ الرجولة.

لكنه هو الآخر تلقَّى في حدائته كُلَّ خامات رجولته، ومبادئ حياته من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يُؤثِّره، وَيُزَكِّيه، وَيُعَلِّمه الحكمة الخالصة.

وبقوة إيمانه، وقوة خُلُقِهِ، وغزارة عِلْمِهِ، اقْتَعَد ابن عباس رضى الله عنه مكاناً عليّاً بين الرجال حول الرسول.

* * *

هو ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وَلَقَبُهُ - الْحَبْرُ.. حَبْرُ هذه الأمة، هَيَّاهُ لهذا اللقب، وهذه المنزلة استنارةً عقله، وذكاء قلبه، واتساع معارفه.

لقد عرف ابن عباس طريق حياته في أوليَّاتِ أيامه وازداد بها معرفة، عندما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام يُدْنِيهِ منه وهو طفل ويربت على كتفه، ويدعو له قائلاً:

«اللهم فَقِّهْهُ في الدين وَعَلِّمْهُ التَّوْبِيلَ».

ثم توالى المناسبات والفرص التي يكرر فيها الرسول هذا الدعاء ذاته لابن عمه - عبد الله بن عباس.. وآئذ، أدرك ابن عباس أنه خُلِقَ للعلم، وللمعرفة.

وكان استعداداه العقلي يدفعه في هذه الطريقَ دَفْعاً قوياً.

فعلى الرغم من أنه لم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره يوم مات رسول الله، فإنه لم يُضَيَّعْ من طفولته الواعية يوماً دون أن يشهد مجالس الرسول ويحفظ عنه ما يقول..

وبعد ذهاب الرسول إلى الرفيق الأعلى حرص ابن عباس على أن يتعلم من أصحاب الرسول السابقين ما فاتته سماعه

وتعلّمه من الرسول نفسه..

هناك، جعل من نفسه «علامة استفهام» دائمة.. فلا يسمع أن
«فلاناً» يعرف حكمة، أو يحفظ حديثاً، إلا سارع إليه وتعلّم منه.
وكان عقله المضىء الطموح يدفعه لفحص كل ما يسمع..
فهو لا يُعنى بجمع المعرفة فحسب، بل ويُعنى مع جمعها بفحصها
وفحص مصادرها.

يقول عن نفسه:

«إِنْ كُنْتُ لَأَسْأَلَ عَنْ الْأَمْرِ الْوَاحِدِ، ثَلَاثِينَ مِنْ
أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

ويعطينا صُورَةً لِحِرْصِهِ عَلَى إدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَعْرِفَةِ فيقول:

«لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ لَفَتِي
مِنَ الْأَنْصَارِ: هَلُمُّ فَلَنَسْأَلَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ
الْيَوْمَ كَثِيرٌ».

«فَقَالَ: يَا عَجَبًا لَكَ يَا بَنَ عَبَّاسٍ!! أَتَرَى النَّاسَ
يَفْتَقِرُونَ إِلَيْكَ، وَفِيهِمْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ مَنْ
تَرَى..؟»

«فترك ذلك، وأقبلتُ أنا أسأل أصحاب رسول الله..
 فإن كان لِيَبْلُغُنِي الحديث عن الرجل، فَآتَى إِلَيْهِ وهو
 قائل في الظهيرة، فَأَتَوَسَّدَ رِءَائِي عَلَى بَابِهِ، يَسْفَى
 الرِّيحُ عَلَىَّ مِنَ التُّرَابِ، حَتَّى يَنْتَهِيَ مِنْ مَقِيلِهِ، وَيَخْرُجَ
 فِيرَانِي، فيقول: يَا بَنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ مَا جَاءَ بِكَ..؟؟
 هَلَا أُرْسِلْتَ إِلَيَّ فَآتَيْكَ..؟؟ فَأَقُولُ: لَا، أَنْتَ أَحَقُّ بِأَنْ
 أَسْعَى إِلَيْكَ، فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ وَأَتَعْلَمُ مِنْهُ»..!!
 هكذا راح فَتَانَا الْعَظِيمُ يَسْأَلُ، وَيَسْأَلُ، وَيَسْأَلُ.. ثُمَّ يَفْحَصُ
 الْإِجَابَةَ مَعَ نَفْسِهِ، وَيُنَاقِشُهَا بِعَقْلِ جَرَى..

وهو في كل يوم، تنمو معارفه، وتنمو حكمته، حتى توفرت له
 في شبابه الْعَصْرُ حِكْمَةُ الشُّيُوخِ وَأَنَاثَتُهُمْ، وَحَصَافَتُهُمْ، وَحَتَّى كَانَ
 أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحْرُصُ عَلَى مَشُورَتِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ
 كَبِيرٍ.. وَكَانَ يُلَقِّبُهُ بِـ «فَتَى الْكُھُولِ»..!!

سئل ابن عباس يوماً: «أُنِّي أَصَبْتَ هَذَا الْعِلْمَ»..؟؟
 فأجاب:

«بِلِسَانٍ سَأُولُ..

«وَقَلْبٍ عَقُولُ»...

فبلسانه المتسائل دومًا، وبعقله الفاخص أبدًا، ثم بتواضعه
ودمائيّة خُلُقِهِ، صار ابن عباس «حَبْرَ هذه الأُمَّة»...

ويصفه «سعد بن أبي وقاص» بهذه الكلمات:

«ما رأيت أحدًا أَحْضَرَ فهِمًا، ولا أَكْبَرَ لُبًّا، ولا أَكْثَرَ
عِلْمًا، ولا أَوْسَعَ جِلْمًا من ابن عباس..

«ولقد رأيت «عمر» يدعو للمعضلات، وحولهُ أهل
بَدْرٍ من المهاجرين والأنصار فيتحدث ابن عباس،
ولا يُجاوِزُ عمر قوله»..

وتحدث عنه عبيد الله بن عُتْبَةَ فقال:

«ما رأيتُ أحدًا كان أعلم بما سَبَقَهُ من حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم من ابن عباس..

«ولا رأيت أحدًا، أعلم بقضاء أبي بكر، وعمر،
وعُثْمان منه..

«ولا أفقَهُ في رأى منه..

«ولا أعلمَ بشعر ولا عَرَبِيَّة، ولا تفسير للقرآن،
ولا بحساب وفريضة منه..

«ولقد كان يجلس يوماً للفقهاء.. ويوماً للتأويل.. ويوماً
للمغازى.. ويوماً للشعر.. ويوماً لأيام العرب
وأخبارها...

«وما رأيتُ عالماً جلس إليه إلا خضع له، ولا سائلاً
سأله، إلا وجد عنده علماً»..!!

ووصفه مسلم من أهل البصرة، وكان ابن عباس قد عمل
والياً عليها للإمام علي بن أبي طالب، فقال:

«إنه آخِذٌ بثلاث، تاركٌ لثلاث..

«آخِذٌ بقلوب الرجال إذا حُدِّث..

«وبُحْسَن الاستماع إذا حُدِّث..

«وبأيسر الأمرين إذا خُولِف..

«وتاركٌ المراء..

«ومُصادَقَةُ اللئام..

«وما يُعْتَدَر مِنهُ»..!!

وكان تنوع ثقافته، وشمول معرفته مما يبهّر الألباب.. فهو الحبرُ الحاذقُ الفطنُ في كل علم.. في تفسير القرآن وتأويله.. وفي الفقه.. وفي التاريخ.. وفي لغة العرب وآدابهم، ومن ثمّ فقد كان مقصد الباحثين عن المعرفة، يأتيه الناس أفواجا من أقطار الإسلام، ليسمعوا منه، وليتفقهوا عليه..

حدّث أحد أصحابه ومعاصريه فقال:

«لقد رأيتُ من ابن عباس مجلساً، لو أن جميع قريش فخرتُ به، لكان لها به الفخر..

«رأيتُ الناس اجتمعوا على بابهِ حتى ضاق بهم الطريق، فما كان أحد يقدر أن يجيء، ولا أن يذهب..

«فدخلتُ عليه فأخبرته بمكانهم على بابهِ، فقال لي: ضَعْ لي وضوءاً، فتوضأ وجلس، وقال: اخرج إليهم، فادعُ من يريد أن يسأل عن القرآن وتأويله..

«فخرجتُ فأدّنتهم: فدخلوا حتى ملأوا البيت، فما سألوها عن شيء إلا أخبرهم وزادهم..

«ثم قال لهم: إخوانكم.. فخرجوا ليفسحوا لغيرهم..

«ثم قال لى: اخرج فادُع من يريد أن يسأل عن
الحلال والحرام..»

«فخرجت فأذنتهم، فدخلوا حتى ملئوا البيت، فما
سألوه عن شىء إلا أخبرهم، وزادهم..»

«ثم قال: إخوانكم.. فخرجوا..»

«ثم قال لى: ادُع من يريد أن يسأل عن الفرائض،
فأذنتهم، فدخلوا حتى ملئوا البيت، فما سألوه عن
شىء إلا أخبرهم وزادهم..»

«ثم قال لى: ادع من يريد أن يسأل عن العريّة،
والشعر..»

«فأذنتهم فدخلوا حتى ملئوا البيت، فما سألوه عن
شىء إلا أخبرهم، وزادهم..»!!

وكان ابن عباس يمتلك إلى جانب ذاكرته القوية، بل الخارقة،
ذكاءً نافذاً، وفطنةً بالغةً..

كانت حُجَّتُه كضوء الشمس ألقاً، ووضوحاً، وبهجةً.. وهو فى
حواره ومنطقه، لا يترك خصمه مُفعماً بالاقتناع فحسب، بل
ومُفعماً بالغبطة من روعة المنطق وفطنة الحوار..

ومع غزارة علمه، ونفاذ حجته، لم يكن يرى في الحوار
والمناقشة معركة ذكاء، يزهو فيها بعلمه، ثم بانتصاره على خصمه..
بل كان يراها سبيلاً قوياً لرؤية الصواب ومعرفته..
ولطالما رَوَّع الخوارج بمنطقة الصارم العادل..

بعث به الإمام «علي» كرم الله وجهه ذات يوم إلى طائفة
كبيرة منهم فدار بينه وبينهم حوار رائع وجَّه فيه الحديث وساق
الحجة بشكل يبهر الألباب..

ومن ذلك الحوار الطويل نكتفى بهذه الفقرة..

سألهم ابن عباس:

«ماذا تَنَقِّمُون من عَلِيٍّ...؟؟».

قالوا:

«نَنَقِّمُ منه ثلاثاً:

«أولاهُن: أنه حَكَّم الرجال في دين الله، والله يقول:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾..

«والثانية: أنه قاتل، ثم لم يأخذ من مقاتليه سبيّاً
ولا غنائم، فَلَئِنْ كانوا كفاراً، فقد حلَّتْ له أموالهم،

وإن كانوا مؤمنين، فقد حُرِّمَتْ عليه دماؤهم..!!

«والثالثة: رضى عند التحكيم أن يخلع عن نفسه صفة أمير المؤمنين، استجابة لأعدائه، فإن لم يكن أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين..»

وأخذ ابن عباس يُفَنِّد أهواءهم، فقال:

«أما قولكم: إنه حكم الرجال في دين الله، فأئى بأس..؟

«إن الله يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النِّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾..»

«فنبئوني بالله: أتحكيم الرجال في حق دماء المسلمين أحق وأولى، أم تحكيمهم في أرنب ثمنها درهم..؟؟!!

وتلعم زعمائهم تحت وطأة هذا المنطق الساخر والحاسم.. واستأنف خبر الأمة حديثه:

«وأما قولكم: إنه قاتل فلم يسب ولم يغنم، فهل كنتم تريدون أن يأخذ عائشة زوج الرسول وأم المؤمنين سبيًا، ويأخذ أسلابها غنائم..؟؟

وهنا كَسَتْ وجوههم صفرةُ الخجل، وأخذوا يُوَارُون وجوههم
بأيديهم.. وانتقل ابن عباس إلى الثالثة:

«وأما قولكم: إنه رَضِيَ أن يخلع عن نفسه صفة أمير
المؤمنين، حتى يتم التحكيم، فاسمعوا ما فعله رسول
الله يوم الحديبية، إذ راح يُمْلِي الكتاب الذى يقوم بينه
وبين قريش، فقال للكاتب: اكتب هذا ما قاضى عليه
محمد رسول الله.. فقال مبعوث قريش: والله لو كُنَّا
نعلم أنك رسول الله ما صَدَدْنَاكَ عن البيت
ولا قَاتَلْنَاكَ..

فاكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.. فقال
لهم الرسول: والله إني لرسولُ الله وإن كَذَّبْتُمْ.. ثم قال
للكاتب الصحيفة: اكتب ما يشاءون.. اكتب: هذا
ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.»!

واستمرَّ الحوارُ بين ابن عباس والخوارج على هذا النَّسقِ
الباهر المعجز.. وما كاد ينتهى النقاش حتى نهض منهم عشرون
ألفاً، معلنين اقتناعهم، ومعلنين خروجهم من خُصومة الإمام
على..!!

ولم يكن ابن عباس يمتلك هذه الثروة الكبرى من العلم
فحسب. بل كان يمتلك معها ثروة أكبر، من أخلاق العلم وأخلاق
العلماء..

فهو في جوده وسخائه إمام وعَلَمٌ..

إنه لَيُفِيضُ على الناس من ماله.. بنفس السَّامِحِ الذي يُفِيضُ
به عليهم مِنْ عِلْمِهِ..!!

ولقد كان معاصروه يتحدثون فيقولون:

«ما رأينا بيتاً أكثرَ طعاماً، ولا شرباً، ولا فاكهةً،

ولا عِلْماً - من بيت ابن عباس»..!!

وهو طاهر القلب، نَقَى النفس، لا يحمل لأحدٍ ضَغْناً ولا غِلًّا.

وهو أيتُّه التي لا يشبع منها، هي تَمْنِيهِ الخير لكل من يعرف ومن

لا يعرف من الناس..

يقول عن نفسه:

«إني لآتي على الآية من كتاب الله فأؤدُّ لو أن الناس

جميعاً عَلِمُوا مثلَ الذي أَعْلَمُ..

«وإني لأسمعُ بالحاكم من حكام المسلمين يقضي

بالعدل، ويحكم بالقسط، فأفرح به، وأدعو له.. ومالى
عنده قضية..!!

وإني لأسمع بالغيث يصيب للمسلمين أرضاً فأفرح
به، ومالى بتلك الأرض سائمة..!!».

وهو عابد قانت أوَّاب.. يقوم من الليل، ويصوم من الأيام،
ولا تُخطئ العين مجرى الدموع تحت خديهِ، إذ كان كثير البكاء
كلما صلى.. وكلما قرأ القرآن..

فإذا بلغ في قراءته بعض آيات الزجر والوعيد، وذَكَرَ الموت،
والبعث - علا نسيجه ونحيبه.

وهو إلى جانب هذا شجاع، أمين، حصيف.. ولقد كان له في
الخلاف بين على ومعاوية آراء تدلُّ على امتداد فطنته، وسعة حيلته.
وهو يؤثِّر السلام على الحرب.. والرَّفَق على العُنف.. والمنطق
على القسْر..

عندما همَّ الحسين رضى الله عنه بالخروج إلى العراق ليقاتل
زيادًا، ويزيد، تعلَّق ابن عباس به واستماتَ في محاولة منعه.. فلما

بلغه فيما بعد نبأ استشهاده، أَقْضَهُ الحزن عليه، ولزم داره.
 وفي كل خلاف ينشِب بين مسلم ومسلم، لم تكن تجد
 ابن عباس إلا حاملاً راية السلم، والتفاهم، واللين..
 صحيح أنه خاض المعركة مع الإمام علىّ ضد معاوية. ولكنه
 فعل ذلك لأن المعركة في بدايتها كانت تمثل رَدْعاً لازماً لحركة
 انشقاقٍ رهيبة، تهدد وحدة الدين ووحدة المسلمين.

* * *

وعاش ابن عباس يملأ دنياه عِلْماً وحكمة، وينشر بين الناس
 عُبيره وتقواه..

وفي عامه الحادى والسبعين، دُعِيَ للقاء ربه العظيم..
 وشهدت مدينة الطائف مشهداً حافلاً لمؤمن يُزَفُّ إلى الجنان.
 وبينما كان جثمانه يأخذ مُستقرَّهُ الآمِنَ في قبره، كانت جنابات
 الأفق تهتز بأصداء وَعْدِ الله الحق:
 ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ
 أَرْجَعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً
 فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي
 وَأَدْخُلِي جَنَّاتٍ﴾

عَبَادُ بَنِ بَشَرٍ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ نُورًا

عندما نزل «مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ» المدينة مُوفِدًا من لَدُنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيُعَلِّمَ الْأَنْصَارَ الَّذِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلِيَقِيمَ بِهِمُ الصَّلَاةَ - كَانَ «عَبَادُ بْنُ بَشَرٍ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاحِدًا مِنَ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ فَتَحَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلْخَيْرِ، فَأَقْبَلَ عَلَى مَجْلِسِ «مُصْعَبٍ» وَأَصْغَى إِلَيْهِ ثُمَّ بَسَطَ يَمِينَهُ يَبَايِعُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَمِنْ يَوْمِئِذٍ أَخَذَ مَكَانَهُ بَيْنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ..

وانتقل النبي إلى المدينة مُهَاجِرًا، بعد أن سبقه إليها الْمُؤْمِنُونَ بِمَكَّةَ.

وبدأت الغزوات التي اصطدمت فيها قُوَى الْخَيْرِ وَالنُّورِ مَعَ

قُوَى الظلام والشرّ.

وفى كل تلك المغازى، كان «عباد بن بشر» فى الصفوف الأولى يجاهد فى سبيل الله مستبسلًا مُتفانيًا بشكل يبهر الألباب.

* * *

ولعلّ هذه الواقعة التى نروها الآن تكشف عن شىء من بطولة هذا المؤمن العظيم..

بعد أن فرغ رسول الله والمسلمون من غزوة «ذات الرّفاع» نزلوا مكانًا يبيتون فيه، واختار الرسول للحراسة نفرًا من أصحابه يتناوبونها وكان منهم «عمار بن ياسر» و«عباد بن بشر» فى نوبةٍ واحدة.

ورأى «عباد» صاحبه «عمارًا» مجهدًا، فطلب منه أن ينام أول الليل على أن يقوم هو بالحراسة حتى يأخذ صاحبه من الراحة حظًا يمكنه من استئناف الحراسة بعد أن يصحو.

ورأى «عباد» أن المكان من حوله آمِن، فلمْ لا يملأ وقته إذن بالصلاة، فيذهب بمثوبتها مع مَثْوِيَةِ الحراسة..؟!

وقام يصلى..

وإذ هو قائم يقرأ بعد فاتحة الكتاب سورةً من القرآن، اخترم

عُضْدَهُ سَهْمٍ، فَنَزَعَهُ وَاسْتَمَرَ فِي صَلَاتِهِ...!

ثم رماه المهاجم في ظلام الليل بسهم ثانٍ نزعهُ وأُنْهِى تِلاوَتَهُ..
ثم رُكِعَ، وسَجَدَ.. وكانت قُوَاهُ قد بَدَّدَهَا الإِغْيَاءُ وَالْأَلَمُ، فَمَدَّ
يَمِينَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ إِلَى صَاحِبِهِ النَّائِمِ بِجَوَارِهِ، وَظَلَّ يَهْزُهُ حَتَّى
اسْتَيْقَظَ..

ثم قام من سجوده وتلا التشهُدَ.. وأتمَّ صَلَاتَهُ.
وصحَا «عِمَارُ» عَلَى كَلِمَاتِهِ الْمُتَهَدِّجَةِ الْمُتَعَبَّةِ يَقُولُ لَهُ:
«قُمْ لِلْحِرَاسَةِ مَكَانِي، فَقَدْ أَصَبْتُ».

ووثب «عِمَارُ» مُحَدِّثًا ضَجَّةً وَهَرُولَةً أَخَافَتْ الْمُتَسَلِّلِينَ، فَفَرُّوا
ثُمَّ التَفَتَ إِلَى «عِبَادٍ» وَقَالَ لَهُ:
«سُبْحَانَ اللَّهِ..

هَلَّا أَيقَظْتَنِي أَوَّلَ مَا رُمِيتُ»...؟؟

فأجابه «عِبَادُ»:

«كُنْتُ أَتْلُو فِي صَلَاتِي آيَاتَ مِنَ الْقُرْآنِ مَلَأَتْ نَفْسِي
رَوْعَةً فَلَمْ أَحِبْ أَنْ أَقْطِعَهَا.

«ووالله، لولا أن أضيعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ بِحِفْظِهِ،

لآثرت الموت على أن أقطع تلك الآيات التي كنت
أتلوها...!!

* * *

كان «عباد» شديد الولاء والحب لله، ولرسوله، ولدينه..
وكان هذا الولاء يستغرق حياته كلها وحسّه كله.
ومنذ سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقول مخاطباً الأنصار
الذين هو منهم:

«يا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ..

«أَنْتُمْ الشُّعَارُ، وَالنَّاسُ الدُّثَارُ..

فَلَا أُوتَيْنِ مِنْ قِبَلِكُمْ».

نقول: منذ سمع «عباد» هذه الكلمات من رسوله، ومُعلمه،
وهاديه إلى الله، وهو يبذل روحه وماله وحياته في سبيل الله وفي
سبيل رسوله..

. في مواطن التضحية والموت، يجيء دوماً أولاً...

وفي مواطن الغنيمة والأخذ، يبحث عنه أصحابه في جهد
ومَشَقَّة حتى يجدوه...!

وهو دائماً :

عابد - تستغرقه العبادة..

بطل - تستغرقه البطولة..

جواد - يستغرقه الجود..

مؤمن قوى، نذر حياته لقضية الإيمان!!

ولقد عُرِفَ له هذا كله بين أصحاب الرسول..

وقالت أم المؤمنين «عائشة» رضى الله عنها:

«ثلاثة من الأنصار لم يجاوزهم فى الفضل أحد:

«سعد بن مُعَاذ..

«وَأَسِيدُ بنِ حُضَيْرٍ..

«وَعَبَّادُ بنِ بَشْرٍ»..

* * *

وعرف المسلمون الأوائل - عَبَّادًا - بأنه الرجل الذى معه

من الله نور..

فقد كانت بصيرته المجلوة المضاء تهتدى إلى مواطن الخير

واليقين فى غير بحث أو عناء..

بل ذهب إيمان إخوانه بنوره إلى الحد الذى أُسْبَغُوا عليه فيه
صورة الحِسِّ والمادَّة، فأجمعوا على أن «عبادًا» كان إذا مشى في
الظلام انبعثت منه أطياْفُ نور وضوء، تضىء له الطريق..

* * *

وفي حروب الرِّدَّة، بعد وفاة الرسول عليه السلام، حمل
«عباد» مسئولياته في استبسال منقطع النظير..

وفي موقعة «اليمامة» التى واجه المسلمون فيها جيشًا من
أقصى وأمهر الجيوش تحت قيادة «مسيلمة الكذاب» أحسَّ
«عباد» بالخطر الذى يتهدد الإسلام..

وكانت تضحيته، وعُنفوانه يتشكَّلان وفقَّ المهامَّ التى يلقيها
عليه إيمانه، ويرتفعان إلى مستوى إحساسه بالخطر ارتفاعًا يجعل
منه فدائيًّا لا يحرص على غير الموت والشهادة..

* * *

وقبل أن تبدأ معركة «اليمامة» بيوم، رأى فى منامه رؤيا لم
تلبث أن فسرت مع شمس النهار، وفوق أرض المعركة الهائلة
الضارية التى خاضها المسلمون..

ولندع صحابيًا جليلاً هو «أبو سعيد الخدري» رضى الله عنه

يقص علينا الرؤيا التي رآها «عباد» وتعبيره لها، ثم موقفه الباهر في القتال الذي انتهى باستشهاده..

يقول أبو سعيد:

«.. قال لي - عبّاد بن بشر - يا أبا سعيد رأيت الليلة، كأنّ السماء قد فُرِجَتْ لي، ثم أَطْبَقَتْ عَلَيَّ..

«وإني لأراها إن شاء الله الشهادة!!

«فقلت له: خيراً والله رأيت..

«وإني لأنظر إليه يوم اليمامة، وإنه ليصيحّ بالأنصار:

احطموا جُفون السيوف، وتميزوا من الناس...

«فسارع إليه أربعمائة رجل، كلهم من الأنصار، حتى

انتهوا إلى باب الحديقة، فقاتلوا أشدّ القتال..

«واستشهد - عباد بن بشر رحمه الله..

«ورأيت في وجهه ضرباً كثيراً، وما عرفته إلا بعلامة

كانت في جسده»!!..

* * *

هكذا ارتفع «عباد» إلى مستوى واجباته كمؤمن من الأنصار،

بايع رسوله على الحياة لله، والموت في سبيله..

وعندما رأى المعركة المضارية تتجه في بدايتها لصالح الأعداء
تذكر كلمات الرسول لقومه الأنصار:

«أنتم الشعار..

«فلا أوتين من قبلكم»...

وملأ الصوت رُوعه وضميره..

حتى لكأن الرسول عليه الصلاة والسلام قائم الآن يردد
كلماته هذه..

وأحس «عباد» أن مسئولية المعركة كلها إنما تقع على كاهل
الأنصار وحدهم.. أو على كاهلهم قبل سواهم..

هنالك اعتلى ربوة وراح يصيح:

«يا معشر الأنصار..

«احطموا جفون السيوف...

«وتميؤوا من الناس»..

وحين لبى نداءه أربعمئة منهم قادهم هو و «أبودجانة»
و «البراء بن مالك» إلى حديقة الموت حيث كان جيش
«مسيلمة» يتحصن..

وقاتل البطل القتال اللائق به كرجل.. وكمؤمن..
وكأنصاري..

* * *

وفي ذلك اليوم المجيد استشهد «عباد»..
لقد صدقت رؤياه التي رآها في منامه بالأمس..
ألم يكن قد رأى السماء تفتح، حتى إذا دخل من تلك الفرجة
المفتوحة، عادت السماء فطويت عليه، وأُغْلِقَتْ؟؟
وفسرهما هو بأن روحه ستصعد في المعركة المنتظرة إلى بارئها
وخالقها..؟

* * *

لقد صدقت الرؤيا، وصدق تعبيره لها..
ولقد تفتحت أبواب السماء لتستقبل في حُبور، رُوح عبّاد بن
بشر..

الرجل الذي كان معه من الله نور...!!

سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو مِنَ الطُّلَقَاءِ، إِلَى الشُّهَدَاءِ!

عندما وقع أسيرًا بأيدي المسلمين في «غزوة بدر» اقترب
«عمر بن الخطاب» من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:
«يا رسول الله.. دَعْنِي أَنْزِعَ ثَنِيَّتِي سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو
حتى لا يقوم عليك خطيبًا بعد اليوم»..
فأجابه الرسول العظيم:

«كلا يا عمر..

«لا أُمَثِّلُ بِأَحَدٍ، فَيُمَثِّلُ اللَّهُ بِي، وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا»..!!

ثم أدنى عمر منه، وقال عليه السلام:

«يا عمر..

«لعلَّ سُهَيْلاً يَقفُ غداً موقفاً يَسْرُكُ»..!!

ودارت الأيام..

وصدقت نبوءة الرسول..

وتحوَّلَ أعظم خطباء قريش «سهيل بن عمرو» إلى خطيب
باهر من خطباء الإسلام..

وتحوَّلَ المشرك اللدود.. إلى مؤمن أوَّاب، لا تكف عيناه عن
البكاء من خشية الله..!!

وتحوَّلَ واحد من كبار زعماء قريش وقادة جيوشها، إلى مقاتل
صُلْب في سبيل الإسلام.. مقاتل عاهد نفسه أن يظلَّ في رباط
وجهاد حتى يدركه الموت على ذلك، عسى الله أن يغفر ما تقدم
من ذنبه..!!

فَمَنْ كان ذلك المشرك العنيد، والمؤمن التقى الشهيد..؟؟

إنه «سهيل بن عمرو»..

واحد من زعماء قريش المبرزين، ومن حكمائها وذَوِي الفطنة
والرأى فيها..

وهو الذى انتدبته قريش ليقنع الرسول بالعدول عن دخول مكة عام الحُدَيْبِيَّةِ..

ففى أخريات العام الهجرى السادس خرج الرسول وأصحابه إلى مكة ليزوروا البيت الحرام، ويُشِّثُوا عُمْرَةَ - لا يريدون حرباً - وليسوا مستعدين لقتال..

وعلمت قريش بمسيرهم إلى مكة، فخرجت لتقطع عليهم الطريق، وتصدّهم عن وجهتهم..
وتأزّمت الموقف، وتوترت الأنفس..

وقال الرسول لأصحابه:

«لَا تَدْعُونِى قَرِيشَ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِى فِيهَا صَلَّةَ الرَّجِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»..

وراحت قريش تُرسل رُسُلَهَا ومندوبيها إلى النبى عليه الصلاة والسلام، فيخبرهم جميعاً أنه لم يأت لقتال - إنما جاء يزور البيت الحرام، ويُعظم حُرُماته:

وكلما عاد إلى قريش أحد مندوبيها، أرسلوا من بعده آخر أقوى شكيمة، وأشدَّ إقناعاً حتى اختاروا «عروة بن مسعود الثقفى» وكان من أقواهم وأفطنهم.. وظننت قريش أن «عروة»

قادر على إقناع الرسول بالعودة.

ولكنه سرعان ما رجع إليهم يقول لهم:

«يا معشر قريش...

إني قد جئتُ كِسْرَى في مُلْكِهِ، وَقِصْرَ في مُلْكِهِ،
والتَّجَاشَى في مُلْكِهِ..

«وإني والله ما رأيتُ مَلِكًا قط يُعْظَّمُه قومه، كما يُعْظَّم
أصحابُ محمدٍ محمدًا..!!

«ولقد رأيتُ حوله قَوْمًا لَنْ يُسْلَمُوهُ لسوءِ أبدًا..

فانظروا رأيكم»...!!!

* * *

عندئذ آمنت قريش أنه لا جدوى من محاولاتها وقررت أن
تلتجأ إلى المفاوضة والصُّلح.. واختارت لهذه المهمة أصلح زعمائها
لها.. وكان «سهيل بن عمرو»..

* * *

رأى المسلمون «سهيلاً» وهو مقبل عليهم فعرفوه، وأدركوا
أن قريشاً آثرت طريق التفاهم والمصالحة، ما دامت قد بعثت آخر
الأمر «سُهَيْلاً»..

وجلس «سهيل» بين يدي الرسول، ودار حوار طويل انتهى بالصلح..

وحاول «سهيل» أن يكسب لقريش الكثير.. وساعده على ذلك - التسامح النبيل والمجيد الذي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدير به التفاوض والصلح..

ومضت الأيام. ينادى بعضها بعضاً، حتى جاءت السنة الثامنة من الهجرة.. وخرج الرسول والمسلمون لفتح مكة بعد أن نقضت قريش عهدها وميثاقها مع رسول الله.

وعاد المهاجرون إلى وطنهم الذي أخرجوا منه بالأمس كارهين..

عادوا، ومعهم الأنصار الذين آوَوْهُم في مدينتهم وآثروهم على أنفسهم..

وعاد الإسلام كله، تخفق في جو السماء راياته الظافرة.. وفتحت مكة جميع أبوابها..

ووقف المشركون في ذُهل..

تُرى ماذا سيكون اليوم مصيرهم، وهم الذين أعملوا بأسهم في المسلمين من قبل قتلاً، وحرَقاً، وتعذيباً، وتجويعاً..؟!

ولم يشأ الرسول الرحيم أن يتركهم طويلا تحت وطأة هذه
المشاعر المذلة المنهكة.

فاستقبل وجوههم في تسامح وأناة، وقال لهم ونبرات صوته
الرحيم تقطر حناناً، ورفقاً:

«يا معشر قريش..

«ما تظنون أنى فاعلٌ بكم»..؟؟

هنالك تقدم خضم الإسلام بالأمس «سهيل بن عمرو» وقال
مجيباً:

«نظن خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم»..

وتألفت ابتسامة من نور على شفتي حبيب الله وناداهم:

«أذهبوا..

«فأنتم الطلقاء»..!!

لم تكن هذه الكلمات من الرسول المنتصر لتدع إنساناً حياً
المشاعر إلا أحالته ذوباً من طاعة وخجل، بل وندم..

وفي نفس اللحظة استجاش هذا الموقف المتلى نبلاً وعظمة،
كل مشاعر «سهيل بن عمرو» فأسلم لله رب العالمين.

ولم يكن إسلامه ساعته، إسلام رجل منهزم مستسلم للمقادير.

بل كان - كما سيكشف عنه مستقبله فيما بعد - إسلام رجل بهرته وأسرته عظمة «محمد» وعظمة الدين الذي يتصرف «محمد» وفق تعاليمه، ويحمل في ولاء هائل رأيته ولواءه..!!



أُطلق على الذين أسلموا يوم الفتح اسم «الطُّلقاء».. أى الذين نقلهم عَفْوُ الرسول من الشرك إلى الإسلام حين قال لهم: «اذهبوا، فأنتم الطُّلقاء»..

يَبْدُ أن نفرًا من أولئك الطُّلقاء جاوزوا هذا الخطَّ بإخلاصهم الوثيق، وسَمَوْا إلى آفاق بعيدة من التضحية والعبادة والطهر، وضعتهم في الصفوف الأولى بين أصحاب النبی الأبرار ومن هؤلاء «سهيل بن عمرو»..



لقد صاغه الإسلام من جديد. وصقل كل مواهبه الأولى، وأضاف إليها، ثم وضعها جميعاً في خدمة الحق، والخير، والإيمان..

ولقد نعتوه في كلمات فقالوا:

«السَّمْح، الجواد..»

«كثير الصلاة، والصوم، والصدقة، وقراءة القرآن،

والبكاء من خشية الله»...!!

وتلك هي عظمة «سُهَيْل».

فعلى الرغم من أنه أسلم يوم الفَتْح، لا قبله، نراه يصدّق في إسلامه وفي يقينه، إلى المدى الذى يتفوق فيه على كل نفسه، ويتحوّل إلى عابد، زاهد، وإلى فدائى مجاهد في سبيل الله والإسلام.

ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، لم يكد النبأ يبلغ مكة، وكان «سُهَيْل» يومئذ مقيماً بها، حتى غَشِيَ المسلمين هناك من الهرج والذهول ما غَشَى المسلمين بالمدينة.

وإذا كان ذُھول المدينة، قد بدّده «أبو بكر» رضى الله عنه ساعتئذ بكلماته الحاسمة:

«مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ...

«وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَإِنْ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوت»..»

فسياخذنا العَجَب حين نرى «سُهَيْلا» رضى الله عنه هو الذى وقف بمكة، نفس موقف أبى بكر بالمدينة.

فقد جمع المسلمين كلهم هناك، ووقف يبهرهم بكلماته الناجعة، يخبرهم أن محمداً كان رسول الله حقاً.. وأنه لم يُمِتْ حتى أدى الأمانة، وبلغ الرسالة. وأن واجب المؤمنين به أن يُعِنُوا من بعده فى السير على مَنهجه.

وبوقف «سُهَيْل» هذا، وبكلماته الرشيدة وإيمانه الوثيق، دَرَأَ الفتنة التى كادت تقتلع إيمان بعض الناس بمكة حين بلغهم نبأ وفاة الرسول..!!

وفى هذا اليوم أكثر من سواه تألقت نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ألم يقل لعمر يوم استأذنه فى نزع ثنيتى سهيل أثناء أسره بيدى:

«دَعَهَا، فَلَعَلَّهَا تَسْرُكُ يَوْمًا»..!!

ففى هذا اليوم.. وحين بلغ المسلمين بالمدينة موقف سهيل بمكة وخطابه الباهر الذى ثبت الإيمان فى الأفئدة - تذكر «عمر ابن الخطاب» نبوءة رسوله.. وضحك طويلا، إذ جاء اليوم الذى

انتفع فيه الإسلام بِثَنِيَّتَيْ سُهَيْل اللتين كان عمر يريد تهشيمهما
واقْتلاعهما..!!

عندما أسلم سهيل يوم الفتح.
وبعد أن ذاق حلاوة الإيمان، أخذ على نفسه عهدًا لخصه في
هذه الكلمات:

«والله لا أدعُ موقفًا وقفته مع المشركين، إلا وقف مع
المسلمين مثله.. ولا نفقةً أنفقتها مع المشركين،
إلا أنفقت مع المسلمين مثلها، لعلَّ أمرى أن يتلوا
بعضه بعضًا»..!!

ولقد وقف مع المشركين طويلا أمام أصنامهم..
فليقف الآن طويلا وطويلا مع المؤمنين بين يدي الله الواحد
الأحد.

وهكذا راح يصلى.. ويصلى..

ويصوم.. ثم يصوم..

ولا يدع عبادة تجلو روحه، وتقربه من ربه الأعلى إلا أخذ
منها حظًا وافياً..

كذلك كان في أمسه يقف مع المشركين في مواطن العدوان
والحرب ضد الإسلام.

فليأخذ الآن مكانه في جيش الإسلام، مقاتلاً شجاعاً، يطفئ
مع كتائب الحق نار فارس التي يعبدونها من دون الله، ويحرقون
فيها مصائر الشعوب التي يستعبدونها.. ويُدمدُم مع كتائب الحق
أيضاً على ظلمات الرومان وظلمهم.. وينشر كلمة التوحيد
والتقوى في كل مكان..

وهكذا خرج إلى الشام مع جيوش المسلمين، مُشاركاً في
حروبها.

ويوم «اليرموك» حيث خاض المسلمون موقعة تنأهت في
الضراوة والعنف والمخاطرة..

كان «سهيل بن عمرو» يكاد يطير من الفرح، إذ وجد هذه
الفرصة الدَّسَمَةَ لكي يبذل من ذات نفسه في هذا اليوم العصيب
ما يمحى به خطايا جاهليته وشركه..



وكان يحب وطنه «مكة» حباً ينسيه نفسه..

ومع ذلك، فقد أبى أن يرجع إليها بعد انتصار المسلمين بالشام

وقال:

«سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مُقام
أحدكم في سبيل الله ساعة، خيرٌ له من عمله طوال
عمره..»

«وإني لم رابطُ في سبيل الله حتى أموت، ولن أرجع إلى
مكة»..!!

* * *

ووفى «سَهيل» عهده..

وظلَّ بقية حياته مُرابطاً، حتى جاء موعد رحيله، فطارَتْ روحه
مسرعةً إلى رحمةٍ من الله ورضوان..

أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ الإِخْلَاصُ.. وَلَيْكُنْ مَا يَكُونُ

عندما بعثه أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» إلى البصرة، ليكون أميرها وواليها، جمع أهلها وقام فيهم خطيباً فقال: «إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم، أعلمكم كتاب ربكم، وسنة نبيكم، وأنظف لكم طرقكم»...!!

وَعَشَى النَّاسَ مِنَ الدَّهْشِ وَالْعَجَبِ مَا عَشَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَيَفْهَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ تَثْقِيفُ النَّاسِ وَتَفْقِيهِهِمْ فِي دِينِهِمْ مِنْ وَاجِبَاتِ الْحَاكِمِ وَالْأَمِيرِ، أَمَا أَنْ يَكُونَ مِنْ وَاجِبَاتِهِ تَنْظِيفُ طُرُقَاتِهِمْ؛ فَذَاكَ شَيْءٌ جَدِيدٌ عَلَيْهِمْ بَلْ مُثِيرٌ وَعَجِيبٌ..

فمن هذا الوالى الذى قال عنه الحسن رضى الله عنه:

«ما أتى البصرة راكب خيرٌ لأهلها منه»؟؟..

* * *

إنه «عبد الله بن قيس» المكنى بـ «أبي موسى الأشعري»..
غادر «اليمن» بلده ووطنه إلى «مكة» فورَ سماعه برسول
ظهر هناك يهتف بالتوحيد، ويدعو إلى الله على بصيرة، ويأمر
بمكارم الأخلاق..

وفي مكة، جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم
وتلقَّى عنه الهدى واليقين..

وعاد إلى بلاده يحمل كلمة الله، ثم رجع إلى الرسول عليه
السلام إثر فراغه من فتح خيبر..

ووافق قدومه قدوم «جعفر بن أبي طالب» مُقبلاً مع أصحابه
من الحبشة فأُسِّمَ الرسول لهم جميعاً..

وفي هذه المرة لم يأت «أبو موسى» وحده، بل جاء معه بضعة
 وخمسون رجلاً من أهل «اليمن» الذين لَقَّهم الإسلام، وأخوان
 شقيقان له، هم: أبو رُهم، وأبو بُردة..

وسمَّى الرسول هذا الوفد.. بل سمَّى قومهم جميعاً
بالأشعريين..

ونعتهم الرسول عليه الصلاة والسلام بأنهم أرقُّ الناس
أفئدة..

وكثيراً ما كان يضرب بهم المثل الأعلى لأصحابه، فيقول فيهم
وعنهم:

«إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي غَزْوٍ، أَوْ قَلَّ فِي أَيْدِيهِمُ
الطَّعَامُ، جَمَعُوا مَا عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ
بِالسَّوِيَّةِ
«فَهُمْ مِنِّي.. وَأَنَا مِنْهُمْ»...!!

* * *

ومن ذلك اليوم أخذ «أبو موسى» مكانه الدائم والعالى بين
المسلمين والمؤمنين، الذين قَدَّرَ لهم أن يكونوا أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وتلامذته، وأن يكون حَمَلَةُ الإِسْلَام إلى الدنيا
في كل عُصُورِها ودُهورِها..

* * *

«أبو موسى» مزيج عجيب من صفات عظيمة..
فهو مقاتل جسور، ومناضل صُلْب إذا اضْطُرَّ لِقِتَالٍ..
وهو مُسَالِّمٌ، طيب، وديع إلى أقصى غايات الطيبة، والوداعة..!!

وهو فقيه، حصيف، ذكيّ، يجيد تصويب فهمه إلى مغاليق الأمور، ويتألق في الإفتاء والقضاء، حتى قيل:
«قضاة هذه الأمة أربعة:

«عمر، وعليّ، وأبو موسى، وزيد بن ثابت»...!!

ثم هو مع هذا، صاحب فطرة بريئة، مَنْ خدَعَهُ في الله، انخدَعَ لَهُ..!!

وهو عظيم الولاء لمسئوليّاته..

وكبير الثقة بالناس..

لو أردنا أن نختار من واقع حياته شعاراً، لكانت هذه العبارة:

«الإخلاص، وليكن ما يكون»..

في مواطن الجهاد، كان «الأشعري» يحمل مسئولياته في استبسال مجيد مما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عنه:

«سيد الفوارس، أبو موسى»...!!

وإنه ليرينا صورة من حياته كمقاتل فيقول:

«خرجنا مع رسول الله في غزاة، نُقِبْتُ فيها أقدامنا،

وَنَقَبْتُ قَدَمَايَ، وَتَسَاقَطْتُ أَظْفَارِي، حَتَّى لَفَقْنَا أَقْدَامَنَا
بِالْخِرْقِ»!!..

وما كانت طبيئته وسلامة طويته ليغريا به عَدُوًّا في قتال..
فهو في موطن كهذا يرى الأمور في وضوح كامل، ويحسمها في
عزم أكيد..

ولقد حدث والمسلمون يفتحون بلاد فارس أن هبط الأشعري
بجيشه على أهل أَصْبَهَانَ الذين صالحوه على الجزية فصالحهم..
بيد أنهم في صلحهم ذاك لم يكونوا صادقين.. إنما أرادوا أن
يهيئوا لأنفسهم فرصة الإعداد لضربة غادرة..

ولكن فطنة «أبي موسى» التي لا تغيب في مواطن الحاجة
إليها كانت تستشِفُّ أَمْرَ أولئك وما يُبَيِّتُونَ.. فلما همُّوا بضربتهم لم
يؤخذ القائد على غِرَّةٍ، وهنالك بارَزَهُم القتال فلم ينتصف النهار
حتى كان قد انتصر انتصارًا باهرًا!!..

* * *

وفي المعارك التي خاضها المسلمون ضد إمبراطورية الفرس،
كان «لأبي موسى الأشعري» رضى الله عنه، بلاؤه العظيم
وجهاده الكريم..

وفى موقعة «تُسْتَر» بالذات، حيث انسحب الهرمزان بجيشه إليها وتحصَّن بها، وجمع فيها جيوشًا هائلة، كان «أبو موسى» بطل هذه الموقعة..

لقد أمدَّ أمير المؤمنين «عمر» يومئذ بأعداد هائلة من المسلمين، على رأسهم «عمار بن ياسر» و«البراء بن مالك» و«أنس بن مالك» و«بَجْرَاءُ البكرى» و«سَلَمَة بن رجاء».. والتقى الجيشان..

جيش المسلمين بقيادة «أبي موسى».. وجيش الفرس بقيادة «الهرمزان» فى معركة من أشد المعارك ضراوة وبأسًا.. وانسحب الفرس إلى داخل مدينة «تُسْتَر» المحصنة.. وحاصرها المسلمون أيامًا طويلة، حتى أعمل أبو موسى عقله وحيلته...

وأرسل مائتى فارس مع عميل فارسى، أغراه «أبو موسى» بأن يفتح باب المدينة، أمام الطليعة التى اختارها لهذه المهمة.

ولم تكن الأبواب تُفتح، وجنود الطليعة يقتحمون الحصن حتى انقض «أبو موسى» بجيشه انقضاضًا مُدممًا..

واستولى على المعقل الخطير فى ساعات. واستسلم قادة
الفرس، حيث بعث بهم أبو موسى إلى المدينة ليرى أمير المؤمنين
فيهم رأيه..

* * *

على أن هذا المقاتل ذا المراس الشديد، لم يكن يغادر أرض
المعركة حتى يتحول إلى أوّاب، بكّاء، وديع كالعصفور..!
يقرأ القرآن بصوت يهز أعماق من يسمعه.. حتى لقد قال عنه
الرسول:

«لقد أوقى أبو موسى مزماراً من مزامير آل داود».

وكان عمر رضى الله عنه كلها رآه دعاه ليتلو عليه من كتاب
الله.. قائلاً له:

«شوقنا إلى ربنا، يا أبا موسى»..

كذلك لم يكن يشترك فى قتال إلا أن يكون ضد جيوش
مشركة، جيوش تقاوم الدين وتريد أن تطفى نور الله..

أما حين يكون القتال بين مسلم ومسلم، فإنه يهرب منه ولا
يكون له فيه دور أبداً.

ولقد كان موقفه هذا واضحاً في نزاع على معاوية، وفي الحرب التي استعَرَ بين المسلمين يومئذ أوأَرها.

ولعلَّ هذه النقطة من الحديث تَصِلُنَا بأكثر مواقف حياته شهرة، وهو موقفه في التحكيم بين الإمام على ومعاوية.

هذا الموقف الذي كثيراً ما يُؤخذ آية وشاهدًا على إفراط أبي موسى في الطيبة إلى حد يسهل فيه خِداعه.

بيد أن الموقف كما سنراه، ورغم ما عسى أن يكون فيه من تَسْرُع أو خطأ، إنما يكشف عن عظمة هذا الصحابي الجليل - عظمة نفسه، وعظمة إيمانه بالحق، وبالناس.. إنَّ رأى «أبي موسى» في قضية التحكيم يتلخص في أنه وقد رأى المسلمين يقتل بعضهم بعضاً، كل فريق يتعصب لإمام وحاكم.. كما رأى الموقف بين المتقاتلين قد بلغ في تأزُّمه واستحالة تصفيته المدى الذي يضع مصير الأمة المسلمة كلها على حافة الهاوية.

نقول: إنَّ رأيه وقد بلغت الحال من السوء هذا المبلغ، كان يتلخص في تغيير الموقف كله والبدء من جديد.

إنَّ الحرب الأهلية القائمة يوم ذاك إنما تدور بين طائفتين من المسلمين تتنازعان حول شخص الحاكم، فليتنازل الإمام على عن

الخلافة مؤقتاً، ولتتنازل عنها معاوية، على أن يرد الأمر كله من جديد إلى المسلمين يختارون بطريق الشورى الخليفة الذى يريدون.

هكذا ناقش «أبو موسى» القضية، وهكذا كان حلُّه لها. صحيح أن الإمام علياً كرم الله وجهه بويع بالخلافة بيعة صحيحة.

وصحيح أن كل تمرد غير مشروع لا ينبغى أن يمكن من غرضه فى إسقاط الحق المشروع. بيد أن الأمور فى النزاع بين الإمام ومعاوية، وبين أهل العراق وأهل الشام كانت - فى رأى أبى موسى - قد بلغت المدى الذى يفرض نوعاً جديداً من التفكير ومن الحلول.. فعصيان معاوية، لم يعد مجرد عصيان.. وتمرد أهل الشام لم يعد مجرد تمرد.. والخلاف كله لم يعد مجرد خلاف فى رأى ولا فى الاختيار..

بل إن ذلك كله تطوّر إلى حرب أهلية ضارية ذهب فيها آلاف القتلى من الفريقين.. ولا تزال تهدد الإسلام والمسلمين بأسوأ العواقب.

فإزاحة أسباب النزاع والحرب، وتنحية أطرافه، مثلاً فى تفكير أبى موسى نقطة البدء فى طريق الخلاص..

ولقد كان من رأى «الإمام على» حينما قبل مبدأ التحكيم، أن يمثل جبهته فى التحكيم «عبد الله بن عباس»، أو غيره من أصحابه. لكن فريقاً كبيراً من ذوى البأس فى جماعته وجيشه فرض عليه «أبا موسى الأشعرى» فرضاً.

وكانت حجتهم فى اختيارهم «أبا موسى» أنه لم يشترك قط فى النزاع بين على ومعاوية منذ بدأ النزاع، بل اعتزل كلا الفريقين بعد أن يئس من حملهما على التفاهم والصلح ونبذ القتال. فهو بهذه المثابة أحق الناس بالتحكيم..

ولم يكن فى دين أبى موسى، ولا فى إخلاصه وصدقه ما يريب الإمام.. لكنه كان يدرك نوايا الجانب الآخر ويعرف مدى اعتمادهم على المناورة والخدعة. وأبو موسى برغم فقهه وعلمه يكره الخداع والمناورة، ويحب أن يتعامل مع الناس، بصدقه، لا بذكائه. ومن ثم خشى الإمام «على» أن ينخدع أبو موسى للآخرين، ويتحول التحكيم إلى مناورة من جانب واحد، تزيد الأمور سوءاً..

* * *

بدأ التحكيم بين الفريقين..

أبو موسى الأشعرى - يمثل جبهة الإمام على.

وعمر بن العاص - يمثل جانب معاوية.
والحق أن «عمر بن العاص» اعتمد على ذكائه الخاد وحيلته
الواسعة في أخذ الراية لمعاوية.

ولقد بدأ الاجتماع بين الرجلين - الأشعري، وعمر -
باقترح طرحه أبو موسى - هو أن يتفق الحكمان على ترشيح
«عبد الله بن عمر» بل وعلى إعلانه خليفة للمسلمين، وذلك لما
كان ينعم به «عبد الله بن عمر» من إجماع رائع على حبه
وتوقيره وإجلاله.

ورأى عمر بن العاص في هذا الاتجاه من أبي موسى فرصة
هائلة فانتهازها..

إن مغزى اقتراح أبي موسى، أنه لم يعد مُرتبطاً بالطرف الذي
يمثله - وهو الإمام علي..

ومعناه أيضاً أنه مستعد لإسناد الخلافة إلى آخرين من
أصحاب الرسول بدليل أنه اقترح عبد الله بن عمر..

وهكذا عثر «عمر» بدهائه على مدخل فسيح إلى غايته،
فراح يقترح «معاوية».. ثم اقترح ابنه «عبد الله بن عمر»
وكان ذا مكانة عظيمة بين أصحاب الرسول عليه وعليهم الصلاة
والسلام.

ولم يَغْبُ ذكاء أبي موسى أمام دهاء عمرو.. فإنه لم يكد يرى
«عَمْرًا» يتخذ مبدأ الترشيح قاعدة للحديث والتحكيم حتى لوى
الزمام إلى وجهةٍ أسلم، فجابةً عمراً بأن اختيار الخليفة حق
للمسلمين جميعاً، وقد جعل الله أمرهم شورى بينهم، فيجب أن
يُترك لهم وحدهم وجميعهم حق الاختيار..
وسوف نرى كيف استغلَّ «عمرو» هذا المبدأ الجليل لصالح
معاوية..

ولكن قبل ذلك لنستمع إلى نص الحوار التاريخي الذي دار
بين أبي موسى وعمرو بن العاص في بدء اجتماعهما، ننقله عن
كتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري:
أبو موسى : يا عمرو. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا
الله..؟

عمرو : وما هو..؟

أبو موسى : نولى عبد الله بن عمر، فإنه لم يُدخل نفسه في شيء
من هذه الحرب.

عمرو : وأين أنت من معاوية..؟

أبو موسى : ما معاوية بموضع لها ولا يستحقها.

عمرو : أَلَسْتَ تعلم أن «عثمان» قُتِلَ مَظْلُومًا..؟
أبو موسى : بلى..

عمرو : فَإِن معاوية وَلِيُّ دَمِ عثمان، وَبَيْتُهُ فِي قَرِيشٍ مَا قَدْ
عَلِمْتَ. فَإِن قَالَ النَّاسُ لِمَ وَلِيُّ الْأَمْرِ وَلَيْسَتْ لَهُ
سَابِقَةٌ؟ فَإِن لَكَ فِي ذَلِكَ عَذْرًا. تَقُولُ: إِنِّي وَجَدْتُهُ
وَلِيُّ عِثْمَانَ، وَاللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا
فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيَّهِ سُلْطَانًا﴾..
وهو مع هذا، أَخُو «أُمِّ حَبِيبَةَ» زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَحَدُ أَصْحَابِهِ..

أبو موسى : اتَّقِ اللَّهَ يَا عَمْرُو..

أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ شَرَفِ معاوية، فَلَوْ كَانَتْ الْخِلاَفَةُ
تُسْتَحَقُّ بِالشَّرَفِ لَكَانَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا «أَبْرَهَةُ بْنُ
الصَّبَّاحِ» فَإِنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ مُلُوكِ الْيَمَنِ التَّابِعَةِ الَّذِينَ
مَلَكُوا شَرْقَ الْأَرْضِ وَغَرْبَهَا..

ثم أَى شَرَفٍ لِمَعَاوِيَةَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ..؟؟
«وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنْ معاوية وَلِيُّ عِثْمَانَ، فَأَوَّلَى مِنْهُ ابْنُهُ
«عَمْرُو بْنُ عِثْمَانَ»..»

ولكن إن طاوعتني أحياناً سنة «عمر بن الخطاب»
وذكره، بتوليتنا ابنه عبد الله الحبر..

عمر : فما يمنعك من ابني عبد الله مع فضله وصلاحه
وقديم هجرته وصُحبته..؟

أبو موسى : إن ابنك رجلٌ صدق، ولكنك قد غمستَه في هذه
الحروب غمساً، فَهَلُمَّ نجعلها للطَّيب بن الطيب..
عبد الله بن عمر.

عمر : يا أبا موسى، إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له
ضُرَّسان يأكل بأحدهما، ويُطعم بالآخر..!!

أبو موسى : وَيَحْكُ يا عمرو.. إن المسلمين قد أَسندوا إلينا الأمر
بعد أن تقارعوا بالسيوف، وتَشَاكَّوا بالرماح، فلا
نردُّهم في فتنة.

عمر : فماذا ترى..؟

أبو موسى : أرى أن نخلع الرجلين - علياً ومعاوية - ثم
نجعلها شُورَى بين المسلمين. يختارون لأنفسهم من
أحبوا.

عمر : رضيت بهذا الرأي فإن صلاح النفوس فيه..

إن هذا الحوار يغير تماماً وجه الصورة التي تعودنا أن نرى بها
«أبا موسى الأشعري» كلما ذكرنا واقعة التحكيم هذه..

إن «أبا موسى» كان أبعد ما يكون عن الغفلة..

بل إنه في حوارهِ هذا كان ذكاؤه أكثر حركة من ذكاء
«عمرو بن العاص» المشهور بالذكاء وبالدهاء..

فعندما أراد «عمرو» أن يجرّع «أبا موسى» خلافة معاوية
بحجة حسبه في قریش، وولايته لدعم عثمان، جاء ردُّ
«أبي موسى» حاسماً لامعاً كحدِّ السيف...!!

- إذا كانت الخلافة بالشرف، فأبرهه بن الصباح سليل
الملوك أولى بها من معاوية..

- وإذا كانت بولاية دم عثمان والدفاع عن حقه،
فابن عثمان يرضى الله عنه، أولى بهذه الولاية من معاوية..

* * *

لقد سارت قضية التحكيم بعد هذا الحوار في طريق يتحمل
مسئوليتها «عمرو بن العاص» وحده..

فقد أبرأ «أبو موسى» ذمته برّد الأمر إلى الأمة، تقول كلمتها
وتختار خليفتها..

ووافق «عمر» والتزم بهذا الرأي..

ولم يكن يخطر ببال «أبي موسى» أن «عمرًا» في هذا الموقف الذى يهدد الإسلام والمسلمين بشر كارثة، سيلجأ إلى المناورة، مهما يكن اقتناعه بمعاوية..

ولقد حذره «ابن عباس» حين رجع إليهم يخبرهم بما تم الاتفاق عليه.. حذره من مناورات «عمر» وقال له:

«أخشى والله أن يكون عمرو قد خدعك، فإن كنتما قد اتفقتما على شيء فقدّمه قبلك ليتكلم، ثم تكلم أنت بعده»!!..

لكن «أبا موسى» كان يرى الموقف أكبر وأجلّ من أن يُناور فيه «عمر».. ومن ثمّ لم يخالجه أى ريب أو شك في التزام «عمر» بما اتفقا عليه..

واجتمعا في اليوم التالى.. «أبو موسى»، ممثلاً لجهة «الإمام على» و «عمر بن العاص» ممثلاً لجهة «معاوية».. ودعا «أبو موسى» «عمرًا» ليتحدث.. فأبى «عمر» وقال له:

«ما كنت لأتقدّمك وأنت أكثر منى فضلًا.. وأقدمُ

هجرة.. وأكبر سنًا...!!

وتقدم «أبو موسى» واستقبل الحشود الرابضة من كلا الفريقين.

وقال:

«أيها الناس.. إنا قد نظرنا فيما يجمع الله به ألفة هذه الأمة ويصلح أمرها، فلم نرَ شيئًا أبلغ من خلع الرجلين - عليّ ومعاوية - وجعلها شورى يختار الناس لأنفسهم من يرونه لها..

«وإني قد خلعتُ عليًّا ومعاوية..

«فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من أحببتكم»..

وجاء دور «عمرو بن العاص» ليعلن خلْع معاوية، كما خلع «أبو موسى» عليًّا، تنفيذًا للاتفاق المبرم بالأمس..

وصعد «عمرو» المنبر، وقال:

«أيها الناس، إن أبا موسى قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه..

«ألا وإني خلعتُ صاحبه كما خلعه، وأُثِّبُ صاحبي

معاوية، فإنه وليُّ أمير المؤمنين «عثمان» والمطالب
بدمه، وأحقُّ الناس بمقامه..!!

ولم يحتمل «أبو موسى» وقع المفاجأة، فلَفَح «عمرًا» بكلمات
غاضبة ثائرة..

وعاد من جديد إلى عُرْلته، وأغذَّ خطاه إلى مكة.. إلى جوار
البيت الحرام، يقضى هناك ما بقى له من عُمر وأيام..

* * *

كان «أبو موسى» رضى الله عنه موضع ثقة الرسول وحيه،
وموضع ثقة خلفائه وأصحابه وحبهم..

ففى حياته عليه الصلاة والسلام ولاه مع «معاذ بن جبل» أمر
اليمن..

وبعد وفاة الرسول عاد إلى المدينة ليحمل مسؤولياته فى الجهاد
الكبير الذى خاضته جيوش الإسلام ضد فارس والروم..

وفى عهد «عمر» ولاه أمير المؤمنين البصرة..

وولاه الخليفة «عثمان» الكوفة..

* * *

وكان من أهل القرآن، حفظاً، وفقهاً، وعملاً..

ومن كلماته المضيئة عن القرآن:

«اتَّبِعُوا الْقُرْآنَ...»

«وَلَا تَطْمَعُوا فِي أَنْ يَتَّبِعَكُمْ الْقُرْآنَ...!!»

وكان من أهل العبادة المشابرين.

وفي الأيام القانطة التي يكاد حرها يزحق الأنفاس، كنت تجد
«أبا موسى» يلقاها لقاء مشتاق ليصومها ويقول:

«لَعَلَّ ظَمَأَ الْهَوَاجِرِ يَكُونُ لَنَا رِيًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»..

وذات يوم رطيب جاءه أجله..

وَكَسَتْ مَحْيَاهُ إِشْرَاقَةً مِنْ يَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ وَحُسْنَ ثَوَابِهِ..

والكلمات التي كان يرددها دائماً طوال حياته المؤمنة، راح
لسانه الآن وهو في لحظات الرحيل يرددها..

تلك هي:

«اللهم أنت السلام..»

ومنك السلام»..

الطُّفِيلُ بْنُ عَمْرِو الدَّوْسِيِّ

الْفِطْرَةُ الرَّاشِدَةُ

في أرض «دَوْسٍ» نشأ بين أسرة شريفة كريمة..
وأوتي موهبة الشعر، فطار بين القبائل صيته ونبوغه..
وفي مواسم «عُكاظ» حيث يأتي شعراء العرب من كل فجٍّ،
وحيث يجتمع الناس ويحتشدون، ويتباهون بشعرائهم، كان
«الطفيل» يأخذ مكانه في المقدمة..

كما كان يتردد على مكة كثيراً في غير مواسم «عكاظ»..
وذات مرة كان يزورها، وقد شرع الرسول يبهر بدعوته..
وخشيت قريش أن يلقاه «الطفيل» ويسلم، ثم يضع موهبته
الشعرية في خدمة الإسلام، فتكون الطامة على قريش وأصنامها..

من أجل ذلك أحاطوا به.. وهَيَّئُوا له من الضيافة كل أسباب الترف والبهجة والنعيم، ثم راحوا يحذرونه لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقولون له:

«إن له قولاً كالسحر، يُفَرِّق بين الرجل وأبيه..

والرجل وأخيه.. والرجل وزوجته.. وإنا نخشى عليك

وعلى قومك منه، فلا تكلمه ولا تسمع منه حديثاً»...!!

وَلْنُضِغَ لِلطُّفِيلِ ذَاتَهُ يَرَوِي لَنَا بَقِيَّةَ النَّبَأِ، فيقول:

«فو الله ما زالوا بي، حتى عزمْتُ عَلَى ألا أسمع منه

شيئاً ولا ألقاه...

«وحين غَدَوْتُ إلى الكعبة حَشَوْتُ أُذُنِي كُرْسَفًا^(١) كي

لا أسمع شيئاً من قوله، إذا هو يتحدث..

«وهناك وجدته قائماً يصلي عند الكعبة، فقمْتُ قريباً

منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض ما يقرأ، فسمعت

كلاماً حسناً...

«وقلتُ لنفسي: واثُكِّلَ أُمِّي.. والله إني لرجلٌ لبيبٌ

شاعر، لا يخفى عَلَى الحسن من القبيح، فما يمنعني أن

(١) الكرسف: القطن.

أسمع من الرجل ما يقول، فإن كان الذى يأتى به حسن قبلته، وإن كان قبيحاً تركته...

«ومكنتُ حتى انصرف إلى بيته، فاتبعته حتى دخل بيته، فدخلت وراءه، وقلتُ له: يا محمد، إن قومك قد حدثوني عنك كذا وكذا..

«فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سدَّتْ أُذُنِي بِكَرْسُفٍ لثلاً أسمع قولك..

«ولكن الله شاء أن أسمع، فسمعتُ قولاً حسناً، فاعرض علىَّ أمرك..

«فعرض الرسول علىَّ الإسلام، وتلا علىَّ من القرآن...

«فلا والله، ما سمعتُ قولاً قطَّ أحسنَ منه، ولا أمراً أعدلَ منه...

«فأسلمتُ، وشهدتُ شهادة الحق، وقلت: يا رسول الله: إني امرؤٌ مُطاعٌ فى قومى وإنى راجعٌ إليهم، وداعيتهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً فيما أدعوهم إليه، فقال عليه السلام: اللهم اجعل له آية»..

* * *

لقد أثنى الله تعالى في كتابه على «الذين يسمعون القول
فيتَّبِعُون أَحْسَنَهُ»..

وها نحن أولاء نلتقى بواحد من هؤلاء...

إنه صورة صادقة من صور الفطرة الرشيدة..

فما كاد سمعه يلتقط بعض آيات الرُّشد والخير التي أنزلها الله
على فؤاد رسوله، حتى تفتَّح كل سمعه، وكل قلبه. وحتى بسط
يمينه مُبايعاً.. ليس ذلك فحسب.. بل حمل نفسه من فوره مسئولية
دعوة قومه وأهله إلى هذا الدين الحق، والصراط المستقيم..!

من أجل هذا؛ نراه لا يكاد يبلغ بلده وداره في أرض «دَّوسٍ»
حتى يُواجه أباه بالذي في قلبه من عقيدة وإصرار، ويدعو أباه إلى
الإسلام بعد أن حدّثه عن الرسول الذي يدعو إلى الله.. حدّثه
عن عظّمته.. عن طهره وأمانته.. عن إخلاصه وإخباته لله رب
العالمين...

وأسلم أبوه في الحال..

ثم انتقل إلى أمه، فأسلمت..

ثم إلى زوجه، فأسلمت..

ولما اطمأن إلى أن الإسلام قد غمّر بيته، انتقل إلى عشيرته، وإلى

أهل «دَوْس» جميعاً.. فلم يُسلم منهم أحد سوى أبي هريرة رضى الله عنه..

ولقد راحوا يخذلونه، وَيَنَآوَنَ عنه، حتى نفذ صبره معهم وعليهم. فركب راحلته، وقطع الفيافي عائداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو إليه، ويتزود منه بتعاليمه..

وحين نزل «مكة» سارع إلى دار الرسول تحدوه أشواقه. وقال للنبي:

«يا رسول الله..»

إنه قد غلبني على دَوْسِ الزُّنَى، والرِّبَا، فادْعُ الله أن يهلك دَوْسا..!!

وكانت مفاجأةً أذهلت «الطفيل» حين رأى الرسول يرفع كفيه إلى السماء وهو يقول:

«اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْساً وَأْتِ بِهِمْ مُسْلِمِينَ»..!!

ثم التفت إلى الطفيل.. وقال له:

«ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم».

ملأ هذا المشهد نفس «الطفيل» روعة، وملأ روحه سلاماً،

وحمد الله أبلغ الحمد أن جعل هذا الرسول الإنسان الرحيم مُعَلِّمَهُ
وأُسْتَاذَهُ. وأن جعل الإسلام دينَهُ ومِلَاذَهُ.

ونَهَضَ عَائِذًا إِلَى أَرْضِهِ وَقَوْمِهِ.

وهناك راح يدعوهم إلى الإسلام في أُنَاةٍ وَرِفْقٍ، كما أوصاه
الرسول عليه السلام.

وخلال الفترة التي قضاها بين قومه، كان الرسول قد هاجر
إلى المدينة - وكانت قد وقعت غزوة «بدر»، و«أُحُد»
و«الْخَنْدَق».

وبينما رسول الله في «خَيْبَرَ» بعد أن فتحها الله على المسلمين
- إذا موكب حافل ينتظم ثمانين أسرة من «دَّوْس» أقبلوا على
الرسول مُهْلِلِينَ مُكَبِّرِينَ..

وبين يديه جلسوا يُبَايعُونَ تَبَاعًا..

ولما فرغوا من مشهدهم الحافل، وبيعتهم المباركة جلس
«الطفيل بن عمرو» مع نفسه يسترجع ذكرياته. ويتأمل خطاه
على الطريق..!!

تذَكَّرَ يوم قدم إلى الرسول يسأله أن يرفع كفيه إلى السماء

ويقول: «اللهم أهلك دوسًا.. فإذا هو يبتهل بدعاء آخر أثار يومئذ عجبه..

ذلك هو:

«اللهم اهْدِ دَوْسًا وَأَتِ بِهِم مُسْلِمِينَ»!!

ولقد هدى الله دوسًا..

وجاء بهم مسلمين..

وها هم أولاء.. ثمانون بيتًا، وعائلة منهم، يُشكّلون أكثرية أهلها، يأخذون مكانهم في الصفوف الطاهرة خلف رسول الله الأمين.

ويواصل «الطفيل» عمله مع الجماعة المؤمنة..

ويوم فتح مكة، كان يدخلها مع عشرة آلاف مسلم لا يثنون أعطافهم زهواً وصلفاً، بل يحنون جباههم في خشوع وإجلال؛ شكرًا لله الذي أثنى بهم فتحًا قريبًا، ونصرًا مبينًا.

ورأى «الطفيل» رسول الله وهو يهدم أصنام الكعبة، ويطهرها بيده من ذلك الرّجس الذي طال مداه..

وتذكر «الدَّوْسِي» من فَوْره صنماً كان لعمر بن حُمَمة. طالما كان «عمر» هذا يصطحبه إليه حين ينزل ضيافته، فيتخضع بين يديه، ويتضرع إليه..!!

الآن حانت الفرصة، ليمحو «الطفيل» عن نفسه إثم تلك الأيام.. هنالك تقدم من الرسول عليه والسلام يستأذنه في أن يذهب ليحرق صنم عمرو بن حُمَمة وكان هذا الصنم يُدعى - ذا الكَفَيْن - وأذن له النبي عليه السلام. ويذهب (الطفيل) ويوقد النار عليه.. وكلما خَبَتْ زادها ضراماً وهو يُنشد ويقول:

يا ذا الكَفَيْن، لَسْتُ، من عِبَادِكَ
مِلَادُنَا أَقْدَمُ من مِلَادِكَ!!
إِنِّي حَشَوْتُ النارَ في فؤادِكَ

وهكذا عاش مع النبي، يصلي وراءه، ويتعلم منه، ويغزو معه، وينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، فيرى الطفيل أن مسؤوليته كمسلم لم تنته بموت الرسول - بل إنها لتكاد تبدأ...

وهكذا لم تكد حروب الردة تنشب حتى كان الطفيل يُشمر لها عن ساعدٍ وساقٍ، وحتى كان يخوض غمراتها وأهوالها في حنانٍ مشتاقٍ إلى الشهادة..

اشترك في حروب الردّة حرباً.. حرباً..

وفي موقعة «اليمامة» خرج مع المسلمين مصطحباً معه ابنه «عمرو بن الطفيل».

ومع بدء المعركة راح يوصى ابنه أن يقاتل جيش الكذاب مسيلمة قتال من يريد الموت والشهادة..

وأنبأه أنه - أى الطفيل - يُحسُّ أنه سيموت في هذه المعركة.

وهكذا حمل سيفه وخاض القتال في تفانٍ مجيد..

لم يكن يدافع بسيفه عن حياته.

بل كان يدافع بحياته عن سيفه.

حتى إذا مات هو وسقط جسده، بقى السيف سليماً مرهفاً

لتضرب به يد أخرى لم يسقط صاحبها بعد..!!

وفي تلك الموقعة استشهد الطفيل الدوسى رضى الله عنه:

وهوى جسده تحت وقع الطعان، وهو يلوح لايه الذى لم يكن

يراه وسط الزحام..!!

يُلَوِّحُ له وكأنه يهيب به ليتبعه ويلحق به..

ولقد لحق به فعلاً.. ولكن بعد حين..

ففى موقعة «اليرموك» بالشام خرج عمرو بن الطفيل
مجاهداً.. وقضى نحبه شهيداً..

وكان وهو يجود بأنفاسه، يبسط ذراعه اليمنى ويفتح كفه، كما
لو كان سيصافح بها أحداً.. ومَنْ يدرى..؟؟
لعله ساعتئذ كان يصافح رُوح أبيه..!!

عمرو بن العاص مُحَرَّرٌ مِّنَ الرُّومَانِ

كانوا ثلاثة في قريش، أتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعنف مقاومتهم دعوته وإيذائهم أصحابه..

وراح الرسول يدعو عليهم، ويبتهل إلى ربه الكريم أن ينزل
بهم عقابه..

وإذ هو يدعو، ويدعو، تنزل الوحي على قلبه بهذه الآية
الكريمة..

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبْهُمْ،
فإنهم ظالمون﴾..

وفهم الرسول من الآية أنها أمر له بالكف عن الدعاء عليهم

، وترك أمرهم إلى الله وحده..

فإِذَا أَن يَظْلُوْا عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَيَحِلُّ بِهِمْ عَذَابُهُ..

أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، فَيَتُوبُوا، وَتَدْرِكُهُمْ رَحْمَتُهُ..

كَانَ «عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ» أَحَدَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ..

وَلَقَدْ اخْتَارَ اللَّهُ لَهُمْ طَرِيقَ التَّوْبَةِ، وَالرَّحْمَةَ، فَهَدَاهُمْ إِلَى
الْإِسْلَامِ...

وَتَحَوَّلَ «عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ» إِلَى مُسْلِمٍ مُنَاضِلٍ.. وَإِلَى قَائِدٍ مِنْ
قَادَةِ الْإِسْلَامِ الْبَوَاسِلِ..

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ بَعْضِ مَوَاقِفِ «عَمْرُو» الَّتِي لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ
نَقْتَنِعَ بِوَجْهَةِ نَظَرِهِ فِيهَا، فَإِنْ دَوَّرَهُ كَصَحَابِي جَلِيلٍ بَذَلَ وَأَعْطَى،
وَنَافَحَ وَكَافَحَ، سَيَظِلُّ يَفْتَحُ عَلَى مُحْيَاهِ أَعْيُنَنَا وَقُلُوبَنَا..

وَهُنَا فِي مِصْرَ بِالذَّاتِ، سَيَظِلُّ الَّذِينَ يَرُونَ فِي الْإِسْلَامِ دِينًا قَيِّمًا
مَجِيدًا.. وَيَرُونَ فِي رَسُولِهِ رَحْمَةً مُهْدَاةً، وَنِعْمَةً مُزْجَاةً، وَرَسُولَ صِدْقٍ
عَظِيمٍ، دَعَا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَأَلْهَمَ الْحَيَاةَ كَثِيرًا مِنْ رَشْدِهَا
وَتَقَاهَا..

سَيَظِلُّ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ هَذَا الْإِيمَانَ مَشْحُودِي الْوَلَاءِ لِلرَّجُلِ
الَّذِي جَعَلَتْهُ الْأَقْدَارُ سَبِيًّا - وَأَيَّ سَبَبٍ - لِإِهْدَاءِ الْإِسْلَامِ إِلَى

مصر، وإهداء مصر إلى الإسلام.. فَنِعْمَتِ الهدية، وَنِعَمَ مُهديها..
ذلكم هو: «عمر بن العاص» رضى الله عنه..

ولقد تعود المؤرخون أن ينعثوا «عَمْرًا» بـ«فاتح مصر»..
بيد أنا نرى في هذا الوصف تجوُّزًا وتجاوزًا، ولعل أحق
النعوت بعمر - أن ندعوهُ - «مُحرر مصر»..

فالإسلام لم يكن يفتح البلاد بالمفهوم الحديث للفتح، إنما كان
يحررها من تسلُّط إمبراطوريتين سامتَا العباد والبلاد سوء
العذاب، تانِكَ هما: إمبراطورية الفرس.. وإمبراطورية الروم..
ومصر بالذات، يوم أهْلَتْ عليها طلائع الإسلام كانت نهبا
للرومان.

وكان أهلها يقاومون دون جَدْوَى ..
ولما دَوَّت فوق مشارف بلادهم صيحات الكتائب المؤمنة أن:
«الله أكبر»..

الله أكبر»..

سارعوا جميعًا في زحام مجيد صَوَّب الفجر الوافد وعانقوه،

واجدين فيه خلاصهم من «قيصر» ومن «الرومان»..

فعمرو بن العاص ورجاله، لم يفتحوا مصر إذن.. إنما فتحوا الطريق أمام مصر لِتَصِلَ بالحق مضايرها.. وتربط بالعدل مقاديرها.. وتجد نفسها وحقيقتها في ضوء كلمات الله، ومبادئ الإسلام..

ولقد كان - رضى الله عنه - حريصاً على أن يباعد أهل مصر وأقباطها عن المعركة، ليظلَّ القتال محصوراً بينه وبين جنود الرومان الذين يحتلون البلاد ويسرقون أرزاق أهلها..

من أجل ذلك نجده يتحدث إلى زعماء النصارى يومئذ وكبار أساقفتهم، فيقول:

«.. إن الله بعث «محمداً» بالحق وأمره به..

«وإنه - عليه الصلاة والسلام - قد أدَّى رسالته، ومضى بعد أن تركنا على الواضحة - أى الطريق الواضح المستقيم - ...

«وكان مما أمرنا به الإِعْذارُ إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام..

«فمن أجابنا، فهو مِنَّا، له ما لنا، وعليه ما علينا..

«وَمَنْ لَمْ يُجِبْنَا إِلَى الْإِسْلَامِ، عَرَضْنَا عَلَيْهِ الْجَزِيَّةَ - أَى
الضَّرَائِبَ - وَبَذَلْنَا لَهُ الْحِمَايَةَ وَالْمَنْعَةَ..

«ولقد أخبرنا نبينا أن مصر ستفتح علينا، وأوصانا
بأهلها خيراً فقال: «سَتُفْتَحَ عَلَيْكُمْ بَعْدَى مِصْرَ،
فَاسْتَوْصُوا بِقِبْطِهَا خَيْرًا، فَإِنْ لَمْ ذِمَّةٌ وَرَحْمًا»^(١)..
فَإِنْ أَجَبْتُمُونَا إِلَى مَا نَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ كَانَتْ لَكُمْ ذِمَّةٌ إِلَى
ذِمَّةٍ...»

وفرغ «عمرو» من كلماته، فصاح بعض الأساقفة والرهبان
قائلًا:

«إِنَّ الرَّجْمَ الَّذِى أَوْصَاكُمْ بِهَا نَبِيِّكُمْ، لَهَى قَرَابَةٌ بَعِيدَةٌ،
لَا يَصِلُ مِثْلُهَا إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ...!!

وكانت هذه بداية طيبة للتفاهم المرجو بين «عمرو» وأقباط
مصر.. وإن يكن قادة الرومان قد حاولوا العمل لإحباطها..

(١) يشير الحديث إلى أن قبط مصر يومئذ كانوا بمثابة أخوال إسماعيل عليه السلام.. ذلك
أن أم إسماعيل هى «السيدة هاجر» وكانت قبطية من مصر، بنى بها «إبراهيم» عليه السلام
حين قدم مصر وأهديت إليه، فأنجبت له إسماعيل.

و«عمرو بن العاص»، لم يكن من السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم مع «خالد بن الوليد» قبيل فتح مكة بقليل..

ومن عَجِب أن إسلامه بدأ على يد «النجاشي» بالحبشة وذلك أن «النجاشي» يعرف «عمرًا» ويحترمه بسبب ترده الكثير على الحبشة والهدايا الجزيلة التي كان يحملها «للنجاشي»، وفي زيارته الأخيرة لتلك البلاد جاء ذكر الرسول الذي يهتف بالتوحيد وبكأرم الأخلاق في جزيرة العرب..

وسأل عاهل الحبشة «عمرًا» ، كيف لم يؤمن به ويتبعه، وهو رسول من الله حقًا..؟؟

وسأل «عمرو» النجاشي قائلا:
«أهو كذلك؟؟»

وأجابه النجاشي:

«نعم.. فأطعني يا عمرو واتبعه، فإنه والله لعلّى الحق، وَلَيَظْهَرَنَّ عَلَيَّ من خالفه»..!!

وركب «عمرو» تَبَجَّ البحر من فوره، عائداً إلى بلاده ، ومِمَّا وجهه شَطْرَ المدينة لِيُسَلِّمَ لله رب العالمين..

وفي الطريق المفضية إلى المدينة التقى «بخالد بن الوليد»

قادمًا من مكة، ساعيًا - هو الآخر - إلى الرسول ليبيعه على الإسلام..

ولم يكد الرسول يراها قادمين حتى تهلل وجهه وقال لأصحابه:

«لقد رَمَتُكُمْ مَكَّةُ بِفَلَذَاتِ أَكْبَادِهَا»...

وتقدم «خالد» فبايع..

ثم تقدم «عمر» فقال:

«يا رسول الله...»

«إني أبايعك على أن يغفر الله لي ما تقدّم من ذنبي»..

فأجابه الرسول عليه السلام قائلا:

«يا عمرو..»

بايع، فإن الإسلام يَجِبُ ما كان قَبْلَهُ»..

وبايع «عمر» ووضع دهاءه وشجاعته في خدمة الدين الجديد.

وعندما انتقل «الرسول» إلى الرفيق الأعلى، كان «عمر» وإليه على - عُمان..

وفي خلافة «عمر» أبلى بلاءه المشهود في حروب الشام، ثم في تحرير مصر من حكم الرومان.

* * *

وباليت «عمر بن العاص» كان قد قاوم في نفسه حب الإمارة..

إذن لكان قد تفوَّق كثيراً على بعض المواقف التي ورَّطه فيها هذا الحب...

على أن حُب «عمر» الإمارة، كان إلى حدٍّ ما، تعبيراً تلقائياً عن طبيعته الجياشة بالمواهب..

بل إن شكله الخارجي، وطريقته في المشي، وفي الحديث، كانت تؤمِّي إلى أنه خلق للإمارة..!! حتى لقد رُوِيَ أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رآه ذات يوم مقبلاً، فابتسم لمشيته وقال:

«ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميراً»..!!

والحق أن «أبا عبد الله» لم يَبْخَسْ نفسه هذا الحق..

وحق حين كانت الأحداث الخطيرة تجتاح المسلمين.. كان

«عمر» يتعامل مع هذه الأحداث بأسلوب أمير.. أمير، معه من الذكاء، والدهاء، والمقدرة ما يجعله واثقاً بنفسه مُعْتَزّاً بتفوّقه..!! ولكن معه كذلك من الأمانة ما جعل «عمر بن الخطاب» وهو الصارم في اختيار وُلاته، يختاره والياً على فلسطين والأردن، ثم على مصر طوال حياة أمير المؤمنين عمر..

حتى حين علم أمير المؤمنين أن «عَمراً» قد جاوز في رخاء معيشته الحد الذي كان أمير المؤمنين يطلب من ولاته أن يقفوا عنده، ليظلوا دائماً في مستوى، أو على الأقل قريبين من مُستوى عامة الناس..

نقول: حتى حين علم الخليفة عن «عمر» كثرة رخائه، لم يَعْزِلْهُ، إنما أرسل إليه «محمد بن مسلمة» وأمره أن يُقاسم «عَمراً» جميع أمواله وأشياءه، فيبقى له نصفها ويحمل معه إلى بيت المال بالمدينة نصفها الآخر.

ولو قد علم أمير المؤمنين أن حب عمرو للإمارة، يحمله على التفريط في مسؤولياته، لما احتمل ضميره الرشيد إبقاءه في الولاية لحظة.

* * *

وكان «عمر» رضى الله عنه حادّ الذكاء، قوى البديهة عميق الرؤية..

حتى لقد كان أمير المؤمنين «عمر» رضى الله عنه، كلّمها رأى إنساناً عاجز الحيلة، صَكَّ كَفَّيْهِ عَجَبًا وقال:

«سبحان الله...!!»

إن خالق هذا، وخالق عمرو بن العاص إله واحد!!
كما كان بالغ الجرأة، مقدّاماً..

ولقد يمزج جرأته بدهائه في بعض المواطن، فَيُظَنُّ به الجبن أو الهلع.. بيد أنها سعة الحيلة، كان عمرو يجيد استعمالها في حِذْق هائل ليخرج نفسه من المآزق المهلكة..!

ولقد كان أمير المؤمنين «عمر» يعرف مواهبه هذه ويقدرها قدرها.

من أجل ذلك. عندما أرسله إلى الشام قبل مجيئه إلى مصر، قيل لأمر المؤمنين: إن على رأس جيوش الروم بالشام «أرطبونا» أى قائدًا وأميرًا من الشجعان الدّعاة.. فكان جواب «عمر»:

«لقد رَمَيْنَا أَرَطْبُونُ الروم، بأَرَطْبُونِ العرب، فلتنظر
عَمَّ تنفَرَج الأمور»..!!

ولقد انفَرَجَت عن غلبة ساجِقة لأَرَطْبُونِ العرب، وداهيتهم
الخطير عمرو بن العاص - على أَرَطْبُونِ الروم الذى ترك جيشه
للهزيمة وولى هارباً إلى مصر.. التى سيلحقه بها «عمرو» بعد
قليل.. ليرفع فوق ربوعها الآمنة راية الإسلام.

* * *

وما أكثر المواقف التى تألَّقَ فيها ذكاء «عمرو» ودهاؤه.
وإن كنا لا نحسب منها بحال موقفه من أبى موسى الأشعرى
فى واقعة التحكيم حين اتفقا على أن يخلع كل منهما علياً ومعاوية،
ليرجع الأمر شورى بين المسلمين، فأنفذ «أبو موسى» الاتفاق.
وقعد عن إنفاذه عمرو..

وإذا أردنا أن نشهد صورة لدهائه، وجِدْقَ بديهته، ففى موقفه
من قائد «حصن بابلين» أثناء حربه مع الرومان فى مصر - وفى
رواية تاريخية أخرى أنها - أى الواقعة التى سنذكرها وقعت فى
اليرموك مع أَرَطْبُونِ الروم..

إذ دعاه الأَرَطْبُونِ والقائد ليحادثه، وكان قد أعطى أمراً

لبعض رجاله بإلقاء صخرة فوقه إثر انصرافه من الحصن، وأعدَّ كل شيء ليكون قتل «عمرو» أمراً محتوماً..

ودخل عمرو على القائد، لا يريه منه شيء، وانفض لقاؤهما وبينهما هو في طريقه إلى خارج الحصن، لمح فوق أسواره حركة مريبة حركت فيه حاسة الحذر بشدة.

وعلى الفور تصرف بشكل باهر.

لقد عاد إلى قائد الحصن في خطوات آمنة مطمئنة وثيدة ومشاعر متهللة واثقة، كأن لم يُفزعْه شيء قط، ولم يُثرْ شكوكه أمراً!!

ودخل على القائد.. وقال له:

- لقد بادرنى خاطر أردتُ أن أطلعك عليه.. إن معى حيث يقيم أصحابى، جماعة من أصحاب الرسول السابقين إلى الإسلام، لا يقطع أمير المؤمنين أمراً دون مشورتهم، ولا يرسل جيشاً من جيوش الإسلام إلا جعلهم على رأس مقاتلته وجنوده - وقد رأيت أن آتيك بهم، حتى يسمعوا منك مثل الذى سمعت، ويكونوا من الأمر على مثل ما أنا عليه من بينة..

وأدرك قائد الروم أن «عمرًا» بسذاجة قد منحه فرصة العمر...!! فليوافقه إذن على رأيه، حتى إذا عاد ومعه هذا العدد من زعماء المسلمين وخيرة رجالهم وقوادهم، أجهز عليهم جميعاً، بدلاً من أن يجهز على «عمر» وحده..

وبطريقة غير منظورة أعطى أمره بإرجاء الخطة التي كانت مُعدة لاختياله «عمر»..

وودّع «عمرًا» بحفاوة، وصافحه بحرارة..

وابتسم داهية العرب، وهو يغادر الحصن..!

وفي الصباح عاد «عمر» على رأس جيشه إلى الحصن، ممتطياً صهوة فرسه، التي راحت تُقَهِّقُهُ في سهيل شامتٍ وساجر.

أجل.. فهي الأخرى كانت تعرف من دهاء صاحبها الشيء الكثير...!!

* * *

وفي السنة الثالثة والأربعين من الهجرة، أدركت الوفاة «عمر بن العاص» بمصر، حيث كان والياً عليها..

وراح يستعرض حياته في لحظات الرحيل فقال:

«.. كنت أول أمري كافراً.. وكنت أشد الناس على رسول الله، فلو مِتُّ يومئذ لوجِبْتُ لى النار..

»ثم بايَعْتُ رسول الله، فما كان فى الناس أحد أحبَّ إلىَّ منه، ولا أجلُّ فى عينيَّ منه.. ولو سُئِلْتُ أن أنعته ما استطعت، لأنى لم أكن أقدر أن أملأ عينيَّ منه إجلالاً له..

فلو مِتُّ يومئذ لَرَجَوْتُ أن أكون من أهل الجنة..
»ثم بُلِيتُ بعد ذلك بالسلطان، وبأشياء لا أدرى أهى لى، أم عَلَىَّ...»

* * *

ثم رفع بصره إلى السماء فى ضراعة، مناجياً ربه الرحيم العظيم قائلاً:

«اللهم لا برىء فأعْتَذِرُ، ولا عزيرٌ فأنتَصِرُ،
«وإِلَّا تُدْرِكْنى رحمتك أكن من الهالكين»!!

وظل فى ضراعاته، وابتهالاته حتى صعدت إلى الله رُوحُه.
وكانت آخر كلماته: لا إله إلا الله..

* * *

وتحت ثرى مصر، التى عرّفها «عمر» طريق الإسلام، ثوى
رُفاته..

وفوق أرضها الصُّلْبَة، لا يزال مجلسه حيث كان يُعلّم، ويقضى،
ويحكم.. قائماً عبْر القرون تحت سقف مسجده العتيق - جامع
عمر - أول مسجد فى مصر ذُكر فيه اسم الله الواحد الأحد،
وأعلنت بين أرجائه ومن فوق منبره كلمات الله، ومبادئ الإسلام.

سالم، مولى أبى حذيفة

.. بَلْ نِعَمَ حَامِلُ الْقُرْآنِ !

أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه يوماً، فقال:

«خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ:

«عبد الله بن مسعود..

«وسالم مولى أبى حذيفة..

«وأبى بن كعب..

«ومُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ..»

ولقد التقينا من قبل بابن مسعود، وأبى، ومُعَاذٍ..

فمن هذا الصحابي الرابع الذي جعله الرسول حُجَّةً في تعليم

القرآن ومَرَجَعًا..؟؟

إنه «سالم مولى أبى حذيفة»..

كان عبداً رقيقاً، رفع الإسلام من شأنه حتى جعل منه ابناً لواحد من كبار المسلمين كان قبل إسلامه شريفاً من أشرف قريش، وزعيماً من زعمائها..

ولما أبطل الإسلام عادة التَّبَنَّى، صار أخاً، ورقيقاً، ومولياً للذى كان يتبناه، وهو الصحابى الجليل: «أبو حذيفة بن عتبة».. وبفضل من الله ونعمة على «سالم» بلغ بين المسلمين شأواً رفيعاً وعالياً، أهلت له فضائل رُوحه، وسلوكه، وتقواه..

وعُرف الصحابى الجليل بهذه التسمية: «سالم مولى أبى حذيفة»..

ذلك أنه كان رقيقاً وأعتق..

وآمن بالله وبرسوله إيماناً مُبَكِّراً..

وأخذ مكانه بين السابقين الأولين..

وكان حذيفة بن عتبة، قد باكر هو الآخر وسارع إلى الإسلام تاركاً أباه «عتبة بن ربيعة» يَجْتَرُّ مغايظَه وهومَه التى عَكَرَتْ صفو حياته، بسبب إسلام ابنه الذى كان وجيهاً فى قومه، وكان أبوه يُعِدُّه للزعامة فى قريش..

وَتَبَنَّى «أبو حذيفة» «سالمًا» بعد عتقه، وصار يدعى بـ «سالم ابن أبي حذيفة»..

وراح الاثنان يعبدان ربهما في إخباتٍ، وخشوع.. ويصبران أعظم الصبر على أذى قريش وكيدها..

وذات يوم نزلت آية القرآن التي تبطل عادة التبني.. وعاد كُلُّ مُتَبَنَّى ليحمل اسم أبيه الحقيقي الذي ولّده وأنجبه..

فـ «زيد بن حارثة» مثلاً، الذي كان النبي عليه السلام قد تبناه، وعُرف بين المسلمين «زيد بن محمد»، عاد يحمل اسم أبيه «حارثة» فصار «زيد بن حارثة» ولكنَّ «سالمًا» لم يكن يعرف له أب، فوالى أبا حذيفة، وصار يُدعى «سالم مولى أبي حذيفة»..

ولعلَّ الإسلام حين أبطل عادة التبني، إنما أراد أن يقول للمسلمين: لا تلتمسوا رَحْمًا، ولا قُرْبى، ولا صِلَةً توَكِّدون بها إخوانكم، أكبر ولا أقوى من الإسلام نفسه.. والعقيدة التي يجعلكم بها إخوانًا..!!

ولقد فهم المسلمون الأوائِل هذا جيدًا..

فلم يكن شيء أحبَّ إلى أحدهم بعد الله ورسوله، من إخوانهم في الله وفي الإسلام..

ولقد رأينا كيف استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين،
فشاطروهم أموالهم، ومساكنهم، وكل ما يملكون..!

وهذا هو الذى رأيناه يحدث بين «أبى حذيفة» الشريف فى
قریش، مع «سالم» الذى كان عبداً رقيقاً، لا يُعرف أبوه..
لقد ظلّا إلى آخر لحظة فى حياتيهما أكثر من أخوين شقيقين -
حتى عند الموت - ماتا معاً.. الروح مع الروح.. والجسد إلى جوار
الجسد..!!

تلك عظمة الإسلام الفريدة..

بل تلك واحدة من عظائمه، ومزاياه..!!

* * *

لقد آمن «سالم» إيمان الصادقين..

وسلك طريقه إلى الله سلوك الأبرار المتقين..

فلم يعد لحسبه، ولا لموضعه من المجتمع أى اعتبار..

لقد ارتفع بتقواه وبإخلاصه إلى أعلى مراتب المجتمع الجديد
الذى جاء الإسلام يُقيمه ويُنهضه على أساس جديد عادل
وعظيم..

أساس تلخصه الآية الجليلة:

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾..!!

والحديث الشريف:

«ليس لعربيّ على عجميّ فضل إلا بالتقوى»..

و«ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا

بالتقوى»..!!

في هذا المجتمع الجديد الرشيد، وجد أبو حذيفة شرفاً لنفسه
أن يوالى من كان بالأمس عبداً..

بل ووجد شرفاً لأسرته، أن يزوج «سالماً» ابنة أخيه «فاطمة»
بنت الوليد بن عُتبة»..!!

وفي هذا المجتمع الجديد، والرشيد، الذى هدم الطبقة الظالمة،
وأبطل التمايز الكاذب، وجد «سالم» بسبب صدقه، وإيمانه،
وبلائه، وجد نفسه فى الصف الأول دوماً..!!

أجل.. لقد كان إماماً للمهاجرين من مكة إلى المدينة طوال
صلاتهم فى مسجد قُباء..!!

وكان «حُجَّةً» في كتاب الله، حتى أمر النبي المسلمين أن يتعلموا منه...!!

وكان معه من الخير، والتفوق ما جعل الرسول عليه السلام يقول له:

«الحمد لله، الذي جعل في أمتي مثلك»...!!

وحتى كان إخوانه المؤمنون يسمونه:

«سالم من الصالحين»...!!

إن قصة «سالم» كقصة «بلال» وكقصة عشرات العبيد، والفقراء الذين نفّض الإسلام عنهم عَوَادِي الرِّقِّ والضعف، وجعلهم في مجتمع الهدى والرشاد أئمة، وزعماء، وقادة..

كان سالم مُلْتَقًى لكل فضائل الإسلام الرشيد..
كانت الفضائل تزدهم فيه وحوله.. وكان إيمانه العميق
الصادق يُنْسِقُها أجمل تنسيق..
وكان من أبرز مزاياه، الجهر بما يراه حقاً..

إنه لا يعرف الصَّمتَ تجاه كلمة يرى من واجبه أن يقولها..
ولا يخون الحياة بالسكوت عن خطأ يُؤدُّها..

بعد أن فُتِحَت مكة للمسلمين، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض السرايا إلى ما حول مكة من قرى وقبائل، وأخبرهم أنه عليه السلام، إنما يبعث بهم دُعاة، لا مُقاتلين..

وكان على رأس إحدى هذه السرايا «خالد بن الوليد»..
وحين بلغ «خالد» وجهته، حَدَّث ما جعله يستعمل السيف،
ويريق الدم..

هذه الواقعة التي عندما سمع النبي صلى الله عليه وسلم نبأها،
اعتذر إلى ربه طويلاً، وهو يقول:

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»..!!

والتي ظلَّ أمير المؤمنين «عمر» يذكرها له ويأخذها عليه،
ويقول: «إن في سيف خالد رهقاً».

كان يصحب «خالدًا» في هذه السَّريَّة.. «سالم» مولَى
أبي حذيفة مع غيره من الأصحاب..

ولم يكد «سالم» يرى صنيع «خالد» حتى واجهه بمناقشة
حامية، وراح يُعَدِّد له الأخطاء التي ارتكبت..

و «خالد» القائد، والبطل العظيم، في الجاهلية، والإسلام،
ينصت مرة، ويدافع عن نفسه مرة ثانية، ويشتد في القول مرة
ثالثة، و «سالم» مستمسك برأيه، يعلنه في غير تهيُّب أو مُدارة..

لم يكن «سالم» آتئذ ينظر إلى «خالد» كشریف من أشراف
مكة.. بينما هو من كان بالأمس القريب رقيقاً..

لا.. فقد سوى الإسلام بينهما..!!

ولم يكن ينظر إليه كقائد تُقدَّس أخطاؤه.. بل كشريك في
المسئولية والواجب..!!

ولم يكن يصُدِّر في معارضته خالداً عن غرض ، أو شهوة، بل
هى النصيحة التى قدَّس الإسلام حقها، والتى طالما سمع نبيّه عليه
السلام يجعلها قِوام الدين كله حين يقول:

«الدينُ النصيحة..

«الدينُ النصيحة..

«الدينُ النصيحة»..

ولقد سأل الرسول عليه السلام، عندما بلغه صنيع «خالد بن الوليد»..

سأل عليه السلام قائلاً:

«هل أنكرَ عليه أحد»..؟؟

ماأجله سؤالاً، وما أروعه..؟؟؟

وسَكَنَ غَضْبُهُ عليه السلام حين قالوا له:

«نعم.. راجَعَه - سالم - وعَارَضَه»..

وعاش «سالم» مع رسوله والمؤمنين..

لا يتخلف عن غزوة، ولا يقعد عن عبادة..

وكان إخاؤه مع «أبي حذيفة» يزداد مع الأيام تفانياً وتماسكاً..

وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى..

وواجهت خلافة أبي بكر رضى الله عنه مؤامرات المرتدّين..

وجاء يوم اليمامة..

وكانت حرباً رهيبة، لم يُبْتَلِ الإسلام بمثلها..

وخرج المسلمون للقتال..

وخرج سالم وأخوه - في الله - أبو حذيفة..

وفي بدء المعركة لم يصمد المسلمون للهجوم.. وأحسَّ كل مؤمن هناك أن المعركة معركته.. والمسئولية مسئوليته..

وجمعهم «خالد بن الوليد» من جديد..

وأعاد تنسيق الجيش بعبقريّة مذهلة..

وتعانق الأخوان «أبو حذيفة» و«سالم» وتعاهدا على الشّهادة في سبيل الدين الحق الذي وهبهما سعادة الدنيا والآخرة..

وقدفا نفسيهما في الخِضَمِّ الرّهيب..!!

كان «أبو حذيفة» ينادى:

«يا أهل القرآن..

«زينوا القرآن بأعمالكم»..

وسيفه يضرب كالعاصفة في جيش مسيلمة الكذاب..

وكان «سالم» يصيح:

«بئس حامل القرآن أنا...»

«لو هُوجِم المسلمون من قِبَلِي»..!!

حاشاك يا سالم .. بل نَعَمْ حامل القرآن أنت..!!
وكان سيفه صَوَّالاً جَوَّالاً في أعناق المرتدِّين، الذين هَبُّوا
ليعيدوا جاهلية قريش.. ويطفئوا نور الإسلام.

وهوى سيف من سيوف الرِّدَّة على يمينه فبترها.. وكان يحمل
بها راية المهاجرين بعد أن سقط حاملها «زيد بن الخطاب»..
ولما رأى يمينه تُبْتَر، التَّقَطَّ الرَّاية بيسرَّاه وظلَّ يُلَوِّحُ بها إلى
أَعْلَى وهو يصيح تالياً الآية الكريمة:

﴿وَكَايٌ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾..

ألا أعظم به من شِعَار.. ذلك الذي اختاره يوم الموت شعاراً
له..!!



وأحاطت به غاشية من المرتدين فسقط البطل.. ولكن روحه
ظلت تتردَّد في جسده الطاهر، حتى انتهت المعركة بقتل «مسيلمة
الكذاب» واندحار جيشه وانتصار جيش المسلمين..

وبينما المسلمون يتفقدون ضحاياهم وشهداءهم وجدوا « سالمًا »
في النزع الأخير..

وسألهم:

ما فعل أبو حذيفة..؟؟

قالوا: استشهد..

قال: فأضجعوني إلى جواره..

قالوا: إنه إلى جوارك يا سالم.. لقد استشهد في نفس
المكان..!!

وابتسم ابتسامته الأخيرة..

ولم يعد يتكلم..!!

لقد أدرك هو وصاحبه ما كان يرجوان..!!

معًا أسلما..

ومعًا عاشا..

ومعًا استشهدا..

يَا رَوْعَةَ الْحُظُوظِ، وَجَمَالَ الْمَقَادِيرِ...!!

* * *

وذهب إلى الله، ذلك المؤمن الكبير الذي قال عنه عمر
ابن الخطاب، وهو يموت:

«لو كان «سالم» حيًّا، لَوَلَّيْتُهُ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِي»...!!

* * *

وَيَعْدُ..

.. الآن ونحن نُودِّع هذا النُفَرَّ الجليل من أصحاب محمد
رسول الله صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين..

أُتْرَانَا وَفَيْنَا الحديث حقّه..؟

أُتْرَانَا أَحْصَيْنَا أولئك الرجال الأفذاذ عدداً..؟

كلا..

لقد استشرفنا عظمتهم من قريب، وَصَحَبْنَا خلال لحظات
مشرقة، ثَلَّةٌ مُباركة منهم، إذ لم تُسَعِفْنَا الحُطُوط بصحبتهم جميعاً..

إن الرجال «الستين» الذين قَدَّمهم هذا الكتاب، لَيَنُوبُونَ
عن الألوف العديدة والمجيدة من إخوانهم الذين رأوا الرسول
صلى الله عليه وسلم، وعاصروه، وآمنوا به، وجاهدوا معه..

ففى صُور هؤلاء الستين الأبرار، نرى صُور جميع الأصحاب..

نرى إيمانهم، وثَبَاتهم، وبُطُولتهم، وتضحياتهم وولاءهم.

نرى البذل الذى بذلوا..

والنصرَ الذى أحرزوا..

والدَّور الذى نهضوا به لتحرير البشرية بأسرها من وثنية
الضمير وضياع المصير..!!

هؤلاء الرجالُ الستون - إذن - هم نموذجُ باهر ورائع،
نستقبله ونستجليه، ونرى فيه أبطالَ وجنودَ أعظم حقبة من حقب
النضال الإنسانى عامة، والدِّينى خاصة..

تلك الحِقْبة التى تهدم فيها العالم القديم تحت مطارق الحقيقة
الجديدة التى جاءت تعلن توحيد الربِّ، وتوحيد الخلق..

فلا أصنام، ولا أوثان..

ولا أباطرة، ولا قياصرة..

إنما الله إله واحد..

وإنما الناس سواسيةٌ كأسنانِ المشط..

ولست أريد أن أعيد ما كتبته من قبل عن الأسباب التى صيغَ
منها وبها هذا الإيمانُ المذهل الذى مُلئت به أفئدة أولئك الرجال..

فهناك في أول هذا الكتاب، وتحت عنوان «النور الذي اتبعوه» هياً لى توفيقُ الله ونعمته تجلّيةً جوهر تلك العوامل والأسباب.

إن «محمدًا» بصدقه، وبثباته، وبطهره، وبعظمته، لم يكن لِيَعَكِسَ على الذين حَوَّلَهُ إِلا إِيماناً من هذا الطراز..

إيمان رجال عرفوه جيداً.. ورأوه فى كل كماله وجلاله.. فى كل إنسانيته وربانيّته.. فى كل سموّه وتواضعه.. فى كل روعته وبساطته.. فى كل قوته ورحمته..

رأوه.. ورأوا نُبْلَ بواعِثِهِ، واستقامة نَهْجِهِ، فلم يعد للشك عليهم بعد إيمانهم به أى سلطان.. بل إنهم لم يستعملوا حقهم المشروع فى أن يسألوه معجزة تُزَكِّي أَمَامَهُمْ نُبوَّتَهُ ورسالته..!!

كل أمة سألت نبيها معجزة، حتى تؤمن به.. إلا أصحاب محمد.. إلا الرِّجَالُ حول الرسول.. لم يقولوا له قط: أَرِنَا معجزة تدلنا على صدقك.. لأن «محمدًا» كان هو المعجزة..!!

والتماسُ معجزة أخرى خارج ذاته، وشخصيته، ومبادئه، سَدَاجَةٌ لا يتورط فيها مثل هذا الطراز من الرجال ذوى

الألباب، لا سيما بعد أن ملأت قلوبهم هداية الله، وغمرت بصائرهم أنوار رسوله..!!



إن إيمان هذا الرّاعيل الأوّل من المسلمين ليُضفى على البشرية كلها في شتّى أديانها، وأزمانها وأجناسها من الثقة ما يجدد لها على الدوام شبابها النضير، وعزمها القدير..

فهم أول الأمر وآخرة، بشرّ من الناس..

كانوا يحيون داخل ظروف، لم تكن في ظاهرها قادرة على أن تجعل منهم ما استطاعوا فيها بعد أن يَكُونُوهُ..

وهم كمجتمع، لم يكونوا قد أحرزوا بعد، كل الصفات اللازمة لقيام مجتمع..

فهم قبائل متنافرة.. متصارعة.. تقودها الفردية المخلقة الصارمة..

وهم كقوة سياسية، لم يكونوا قبل الإسلام شيئاً مذكوراً..

وكقوة اقتصادية، كانوا من أكثر الناس فقراً..

وكقوة عدديّة، كانوا من أقل الناس عدداً..

فما الذى حدث، حتى صار هؤلاء الأقلون فى كل شىء بُنَاةَ
عَالَمٍ جديدٍ رائعٍ القَسَمَاتِ..؟؟

أهى قوة السلاح وكثرة الجيوش..؟؟

لقد كان «الإسكندر» من قبلهم، و«جنكيز خان» من بعدهم
أوفر سلاحًا وأكثر جُنْدًا..

فأين الإسكندر اليوم، وأين جنكيزخان..؟؟

ماذا بقى منها، ومن جيوشها الغاربة، ومن انتصاراتها
المروعة..؟؟

ماذا بقى من كل ذلك فى ضمير الحياة، وفى ضمائر البشر..!!
لا شىء...

إذن لم تكن القوة المادّية فى كل صورها، هى التى جعلت من
أصحاب الرسول ما رأينا..

إنما هو الإيمان.. الإيمان بالحق، وبالخير..

ومن قبل هذا، الإيمان برب الحق والخير..

وهذا هو الدرس الصادق الذى ألقاه ويلقيه على البشر

جميعاً.. محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا معه..

إن الظلام يتحول إلى نور..

والفوضى تتحول إلى نظام..

والضعف يتحول إلى قوة..

والضياع يصير مَنَعَةً..

والمهانة تصبح عَظَمَةً..

والجهالة تُضَحِّي معرفة..

والعَدَم يصير وَفَرَةً..

وجميع الأشواك تُضَحِّي أزاهير، عندما يكرسُ الناس حياتهم
لقضية الحق والخير..

هذا، هو ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه
معه..

وهذا، هو ما صنعه من قبل، المرسلون كافة، وأصحابهم
المؤمنون..

وهذا، هو الدرس الذي تركوه..

ولأنَّ الحق والخير، كانا جَوْهر الدور الذى قام به الرسول
وصَحْبُهُ..

ولأنَّ الإيمان الصادق، الطاهر، الشجاع كان نَهْجَهُم وسَبِيلَهُمْ..
.. لأنَّ ذلك كذلك - رأيناهم - محمدًا وصَحْبَهُ - يُورَثُون
البشرية خير ميراث...

ورأيناهم يَمْلُثُون الضمير الإنساني عافية، ونورًا، ورُشْدًا..
واليوم، تحمل أكثر إذاعات الدنيا آيات القرآن العظيم الذى
كان للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه إمامًا ونورًا، لتذيعها
جَهْرَةً وإِعْلَانًا..

أكثر إذاعات الدنيا.. حتى الدول التى لها دين غير الإسلام..
وحتى الدول التى لا تؤمن بدين..

أكثرها، فى إذاعاته الموجهة باللسان العربى، يَسْتَهْلُ بِرَاجِهِ
بآيات القرآن..!!

وفى كل بقاع الأرض..

بين الشعوب المسلمة..

والشعوب المسيحية..

وبين اليهود، والهندوكيين، والبوذيين..

وفوق روع الدول التي لا تؤمن بدين أيضاً..

بين هؤلاء ، وهؤلاء.. ترتفع المآذن الشاحخة لِتُدَوَّى من فوقها
نفس الكلمات التي دَوَّى بها صوت مؤذن الرسول صلى الله عليه
وسلم منذ ألف وأربعمائة عام..

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله

حَيَّ على الصلاة

حَيَّ على الفلاح

في كل مكان من الأرض، يُتلى قُرْآن هذا الدين..

وفي كل مكان من الأرض، تنهض مساجده..

وفي كل مكان من الأرض، تذايع مبادئه..

أية قوة وهبته هذا الخلود...!!؟؟

إنها نفس القوة التي رأيناها من قبل تمنح هذا الدين ورجاله

قدرة خارقة وفائقة على تغيير الدنيا، وتغيير ما فيها من ناسٍ،

وقيَم، ومصاير..

إنها قوة الإيمان بالحق، وبالخير..

ومن قبل هذا، الإيمان برَّب الحق، والخير..

وبالرسول، بل وبالرُّسل الذين نذروا حياتهم للحق وللخير..

الذين أعطوا كل شىء، ولم يأخذوا شيئاً!!

بَقِيَتْ في هذه الخاتمة كلمة تُقال..

إنه سؤال يراود الخاطر حتمًا، بعد أن طالعنا تلك المشاهد
المضيئة التي رأينا خلالها أولئك الرجال السَّيِّئِينَ من أصحاب
رسول الله عليه الصلاة والسلام..

هذا السؤال هو : كيف أمَّكَّن الخصومة والخلاف، أن يفسدا
العلاقات الوثَّقى بين أولئك الإخوة الراشدين.. وكيف غَلَبَتْهُمْ
على إخائهم الباهر تلك الحرب الأهلية التي نشبت بين أنصار
على، وأنصار معاوية، والتي رأينا - عَرَضًا - بعض أنبائها، خلال
صفحات الكتاب..؟

والجواب عن هذا السؤال يرجع بنا إلى فضيلة الإيمان عند
أولئك الأصحاب، ثم إلى عوامل أخرى تاريخية..

أَجَلٌ.. إن إيمانهم الواضح، والصادق، والحاسم، جعلهم من أصحاب الطريق الواحد..

لم يكن للحق عندهم سوى وجه واحد يعرفونه ويتبعونه.. وليست له وجوه كثيرة مُتَنَحِّلَةٌ يتأرجح بينها المتأرجحون وَفَقَّ أهوائهم ومصالحهم .

ولما كان الرسول عليه السلام عائشاً بينهم، كان الاهتداء إلى الحق الذى يختلف فيه الناس أمراً مُيسِّراً:

فالوحي، أو الرسول، أو هما معاً يفصلان في كل مُشْتَبِهٍ من الأمور.

فلما رحل الرسول عنهم، لم يختلفوا قط فيما سبق أن فصل الله فيه، أو فصل فيه رسوله.

ولما قُتِلَ «عثمان» رضى الله عنه، وكان مقتله مسبوqاً ومصحوباً بفتنة وبيلة هزت كل أقطار الإسلام يومئذ، نجم عن هذا الحادث الرهيب موقف أوسع للخلاف في الرأى وفى التقدير. وصار محتوماً على الصحابة أن يحدد كل موقفه ويختار جانباً من جوانب الرأى المتعددة.

وكانت طريقتهم في الاختيار كطريقتهم في الإيمان.. الوضوح

والحَسْم.. فلا تردّد، ولا نفاق..

فالمقتنعون بوجهة النظر التي يتزعمها الإمام على، اختاروا جانبه.

والمقتنعون بوجهة النظر التي يتزعمها معاوية، اختاروا جانبه.

والمقتنعون بخطأ الاتجاهين، اختاروا وجهةً ثالثةً تمثلت في حمل الفريقين المتنازعين على نبذ الخلاف، فلما أفلت الزمام اختاروا الحياد، واعتزلوا النزاع..

هذا، فيما يخصّ الأصحاب السابقين إلى الإسلام الذين عاصروا الرسول، وجاهدوا معه قُوى الشرك والظلام:

على أن هؤلاء الأصحاب لم يكونوا أيام النزاع بين على ومعاوية يمثلون وحدهم «مركز الثقل» في الدولة الإسلامية..

ذلك أن الدولة أيامئذٍ، كانت قد اتسعت اتساعاً هائلاً وبرزت فيها قُوى جديدة، أخذت تشارك في الأحداث وتوجّهها..

وليس أدل على ذلك من أن المؤامرة التي استهدفت حياة الخليفة عثمان، والأجهزة التي تولّت تنفيذها، إنما جاءت من خارج المدينة، بل من خارج الجزيرة العربية كلها.. من أقطار الإسلام البعيدة..

فهذه القُوى الجديدة لعبت دورًا لم يكن في وسع الصحابة الكبار أن يدفعوه.. دورًا خطيرًا وفعّالًا في تحويل النزاع بين على ومعاوية إلى حرب وقتال..

بل إن أهل الشام في جانب معاوية، وأهل العراق في جانب على، صاروا - في التطور الأخير للنزاع - أصحاب الدور الحقيقي في هذه الحرب..

حتى أن الحرب في التحليل النهائي لها، لم تكن بين معسكرين إسلاميين بقدر ما كانت بين معسكرين إقليميين.. أهل الشام في جانب وأهل العراق في جانب آخر..!!

وهناك قوة ثالثة لا يمكن تجاهلها.. قوة شريرة لم تنم عن الإسلام لحظة منذ انتزع الصولجان من يدها وسوى بسلطانها التراب.

تلك القوة المتمثلة في بقايا فارس والروم، والتي ظلت تُمارس كَيْدها للإسلام عن طريق عملائها الكثيرين الذين تسللوا إليه متظاهرين باعترافه، والذين استطاع بعضهم أن يحدث داخل صفوف المسلمين من التخريب والهدم ما عجزت عنه الإمبراطوريتان المنهزمتان..!!

هذه نظرة سريعة في ظروف ذلك الموقف الصعب الذى اجتازه الصحابة، والإسلام كله فى تلك الأيام.. على أنه لا ينبغي أن نتجاهل حقيقة أخرى - هى أن كلاً من زعماء المعسكرين المتحاربين، لم يكن يحسب قط أن الأمور ستتطور إلى هذا المدى الرهيب..

فالإمام على ومن معه، كانوا يرون فى زحفهم إلى الشام مجرد حملة تخويف، لن يلبث معاوية أن يُفبق معها على قوة سلطان الدولة، فيحترمه ويطيعه..

ومعاوية ومن معه، كانوا يعتقدون أن الإمام علياً إنما يعُجم عودهم، ويَبْلُو استعدادهم، فإذا وجد ما هم عليه من القوة والعدة، فإنه سيلتمس لتسوية الخلاف طريقاً أخرى غير الحرب.. لكن الأمور تطورت تطوراً بعيداً..

وإن تطورها المبالغت والبعيد، ليكشف عن القوى المخبوءة التى كانت تعمل فى جوف كل معسكر، لتحوّل النزاع إلى حرب وقتال..

والآن لنختم حديثنا عن تلك الحرب بهذه الواقعة.

كان «الزبير» رضى الله عنه يقاتل فى صف معاوية.. وفى نهاية
المعركة تبين له خطأ اشتراكه فى الحرب، فانسحب منها.
بيد أن نفرًا من المتحاربين تعقبوه، وطعنوه طعنة قاتلة وهو
قائم يصلى..

واستلب القاتل سيف «الزبير» ، وقطع الأرض وثبًا إلى
الإمام على - يريد أن يزف إليه بشرى مقتل «الزبير» ويضع بين
يديه سيفه الذى قاتل به ضد على مع معاوية..

ووقف بباب الإمام.. يستأذن فى الدخول..
وعلم «على» ما حدث. فصاح أمرًا بطرد القاتل وهو يقول:
«بَشْرُ قَاتِلِ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ»

يعنى بابن صفية «الزبير» رضى الله عنه..
وأمر بأن يُجَرَّدَ من سيف «الزبير» وأن يجيئوه بالسيف..
وحمل سيف «الزبير» إلى الإمام على، فراح يقبله وبكى
ويقول:

«سَيْفُ ظُلْمًا وَاللَّهِ جَلَا بِهِ صَاحِبُهُ الْكَرْبُ عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ»!



هذا مشهد عظيم يُضفى على ذلك الخلاف وعلى مضاعفاته
المؤلة كثيراً من السكينة، ويُفَى علينا ونحن نتذكره كثيراً من
الفهم وحسن التقدير..

والآن ونحن نُودّع أولئك الرجال الذين عشنا معهم على
صفحات الكتاب أوقاتاً مُفعمة بالقبطة والسعادة.. نسجد لله
شاكرين أنعمه.. راجين المزيد من نعمته، ورحمته، وعافيته..

وفي خشوع وإجلال، نقول للمعلم العظيم، خاتم المرسلين:
- السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته...
- وجزاك الله عما أعطيت، وهديت، خير الجزاء..
وفي شوق مُتجدد ومُفيض، نقول لأصحابه المباركين:
أيها الأبرار: وداعاً..!!

ولكن.. متى غابوا، حتى يُقال لهم وداع..؟؟
فلتكن تحيتنا لهم: سلام...

سلام، اَزَجِيْنَاه - خاشعين - عند البدء..

وَنُزْجِيْه - خاشعين عند الختام.

* * *

طبع بمطابع دار المعارف
